مجلة جامعة الملك سعود، م ١٢، الآداب (٢)، ص ص ٥٢١- ٥٨٦ (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

القُصَّاص ودورهم السياسي في العصر الأموي (٤١-١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٥٠م)

إبراهيم بن عبدالعزيز الجميح

أستاذ مساعد، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبدالعزيز، جدة، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر بتاريخ ٢٩/ ٨/ ١٤١٨هـ؛ وقبل للنشر بتاريخ ٢٥/ ١١/ ١٤١٨هـ)

ملخص البحث. كان دور القُصَّاص في بداية الإسلام الوعظ والتذكير. ولكن بعضهم تحولوا في العصر الأموي إلى قُصَّاص مسيّسين يعبرون عن الدولة الأموية والحركات السياسية المعارضة. فمن هم القُصَّاص وماهو القصص؟ ومتى كان أول ظهورهما؟ وكيف تطور القصص وتحول من الوعظ والتذكير إلى قصص سياسي؟ وما هو دور القُصَّاص الأمويين السياسي في العصر الأموي؟ وكيف كانت الحركات السياسية من زبيرية وشيعة وخوارج وغيرها، تعبر في قصصها عن ميولها السياسية وعقائدها؟ ثم، ماهي صفة القُصَّاص؟ وكيف كان يتم تعيينهم؟ وماهي وظيفتهم؟ وهل كانوا يخدمون أغراضا سياسية ودينية تتوافق مع ميولهم وانتماءاتهم لحركاتهم؟ وأخيرا، لماذا كان قُصَّاص الأمويين وقُصَّاص بعض الحركات السياسية أكثر عددا وتنظيما من غيرهم، وماهي أسباب ذلك؟ هذه الدراسة تعد محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة، وذلك من خلال إلقاء الضوء على دور القُصَّاص السياسي في العصر الأموي.

مقدمة

كان دور القُصَّاص السياسي في العصر الأموي دورا رائدا ومميزا في الدعم السياسي للدولة الحاكمة والحركات المعارضة. فقد برز الكثير من القُصَّاص الذين أيدوا الدولة الأموية وساندوها. ولم تخل حركة من الحركات السياسية السائدة في ذلك العصر من قاص أو عدة قُصَّاص منضوين تحت رايتها ومعبرين عنها.

وبالرغم من أهمية هذا الدور إلا أنه لم يحظ بالاهتمام من قِبَلِ الدارسين، فلم تعن الدراسات المتاحة عناية شاملة بدور القُصَّاص السياسي في العصرِ الأموي.[١] ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتملأ فجوة في التاريخ السياسي للعصر الأموي. وهي بذلك تحاول أن تبين بالتحليل والمقارنة دور القُصَّاص السياسي منذ بداية نشأة الدولة الأموية وتولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة إلى نهاية العصر الأموي. وسوف تركز على قُصَّاص النظام الأموي الحاكم وقُصَّاص الحركات السياسية والدينية المعارضة، وذلك بدراسة مضمون هذا القصص وما يُعبر عنه سياسيا ودينيا.

وقد يُثار هنا تساؤل عن جدوى دراسة دور القُصَّاص السياسي! وللإجابة عن هذا التساؤل لابد من القول إن قيام الدولة الأموية صاحبه انقسام في صفوف الأمة الإسلامية إلى شيع وحركات وفرق متعارضة، كالنظام الأموي الحاكم وأنصاره المؤيدين للدولة الأموية، وفرقة الخوارج وهم المعارضون لعامة المسلمين، وفرقة الشيعة وهم أنصار علي ابن أبي طالب وأسرته ومؤيديهم والمعارضون لدولة بني أمية، وغيرهم من الحركات السياسة كحركة عبدالله بن الزبير، وحركتي عبدالرحمن بن الأشعث، والحارث بن سُرَيْج.

ولاشك، أن كلا من الدولة الأموية والحركات المعارضة لها كانت توظف القُصَّاص لمصالحها السياسية، وتجد في قصصهم تعبيرا عن آرائها السياسية، وإعلان موقفها من خصومها، وتدعيم سلطتها القائمة، وتبرير تحركها السياسي. كما كانت تجد في القصص، بمايحتويه من معان دينية واقتباس قرآني،[٢] أسلوبا للحض على القتال، وشحذا لعزيمة المتحاربين، وإثارة للمستمعين، وتقليلا من شأن الأعداء.

---

(١) لابد هنا من استثناء دراسة جمال محمد داود جودة، «القصص والقصاص في صدر الإسلام بين الواقع التاريخي والنظرة الفقهية،» مجلة *دراسات تاريخية*، جامعة دمشق، ١٠، ع ع ٣١، ٣٤ (١٩٨٩م)، ١٠٥-١٤١. وهي دراسة أولت أهمية لدور القُصَّاص السياسي، ولكنها لم تكن شاملة لقُصَّاص الأمويين والحركات السياسية في العصر الأموي. وكذلك دراسة: آدم متز، *الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام*، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م)، ٢: ١٤٦-١٥٦، حيث ناقش قُصَّاص الشيعة التوابين باختصار.

(٢) اقتباس القرآن الكريم هو: استعمال الآيات القرآنية في النثر أو الشعر دون الإشارة بأنها =

تمهيـد

قبل الحديث عن دور القُصَّاص السياسي في العصر الأموي، لابدَّ من إعطاء صورة موجزة عن القُصَّاص والقصَصَ ودورهما في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لكي يحقق البحث أغراضه.

فالقُصَّاص: جمع قاص؛ وهم الذين يقصون القصص أي الأخبار، والقَصَصُ جمع قصة، وهي تعني الخبر المقصوص، يُقال قص خبره، أي نقله وأورده.[٣] وهم الذين يوردون الأخبار ويشرحونها، وهم في الغالب من يروون أخبار الأمم الماضية والأقوام السابقة.[٤]

وقد تداول العرب القصَصَ قبل الإسلام، وكان أكثره شيوعا على ألسنتهم؛ أيامهم وحروبهم وما سجَّله أبطالهم من انتصارات، وما مُنيت به بعض قبائلهم من هزائم. وقد

=من القرآن الكريم وذلك بأن لايقال فيه قال الله تعالى ونحوه، انظر: محمد بن عبدالله الزركشي، *البرهان في علوم القرآن*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ١: ٤٨١-٤٨٣؛ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، *الإتقان في علوم القرآن*، ط٤ (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٧٨م)، ١: ١٤٧-١٤٩؛ انظر أيضا: D.B. Macdonald (S.A. Bonebakker), "Iktibas," *Encyclopedia of Islam*, 2nd ed. 3:1091-2.

(٣) حول تعريف القُصَّاص والقصص، انظر: أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، *لسان العرب* (بيروت: دار الفكر ودار الفيروز، د.ت.)، ٧: ٧٣-٧٥؛ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، *القاموس المحيط*، ط ٢ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٤٤هـ)، ٢: ٣١٣؛ E.W. Lane, *Arabic English Lexicon* (1863-93; reprint, Lahore, 1978), 2:2528; Ch. Pellat, "Kissa," *Encyclopedia of Islam*, 2nd ed., 5:185-86..

(٤) انظر: جمال الدين أبا الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي، *كتاب القُصَّاص والمذكرين*، تحقيق مارلين سوارتز (بيروت: دار المشرق، ١٩٧١م)، ٩-١٠؛ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، *تحذير الخواص من أكاذيب القُصَّاص*، تحقيق محمد الصباغ، ط٢ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٤م)، ٢٦٩؛ وانظر أيضا: Ignaz Goldziher, *Muslim Studies*, ed. S.M. Stern (London: George Allen and Unwin, 1967), 1:170.

عرف هذا القصص بـ«أيام العرب»؛ ويقصد بها تلك الحروب التي وقعت في الجاهلية بين القبائل العربية كأيام داحس والغبراء ويوم الفجار وغيرها من الأيام. (٥)

كما كان القُصَّاص قبل الإسلام يقصون كثيرا عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة، وعن ملوك الأمم من حولهم، كملوك فارس وغيرهم، وعن كُهَّانهم وشعرائهم وسادتهم، وهو قصص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب معينا لاينضب من الأخبار. (٦)

وعند ظهور الإسلام، أورد القرآن الكريم الكثير من القصص الذي يدور حول الأنبياء كقصة يوسف وأيوب وموسى عليهم السلام، وقصص قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم. (٧)

وكان الهدف من هذا القصص تذكير الناس ووعظهم بما حدث للأقوام والأمم السابقة، التي عصت الله سبحانه وتعالى ولم تطعْ رسله فأصابها الدمار. ولذلك ورد القصص في القرآن الكريم في ٢٧ آية. (٨) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا** ﴿١٠١﴾ ﴾. (٩) وقوله تعالى: ﴿ **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ**

---

(٥) حول أيام العرب انظر: محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني، ابن الأثير، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ١: ٥٦٦-٥٩٥؛ محمد أحمد جاد المولى بك وعلي محمد البجاوي، *أيام العرب في الجاهلية* (بيروت: دارالفكر، د.ت.)، ١: ٢٤٦، ٣٢٢؛ شوقي ضيف، *العصر الجاهلي*، ط ٥ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م)، ٤٠٠.

(٦) ضيف، *العصر الجاهلي*، ٤٠٠.

(٧) انظر: أبا الفداء إسماعيل بن كثير، *قصص الأنبياء*، تحقيق الشيخ خليل الميس، ط٧ (بيروت: دار القلم، ١٩٨٧م)؛ أحمد بن محمد بن إبراهيم بن إسحاق الثعالبي، *قصص الأنبياء المسمى بالعرائس* (القاهرة: مكتبة الجمهورية العربية، د.ت.).

(٨) انظر: محمد فؤاد عبدالباقي، *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم* (إستنبول: المكتبة الإسلامية، ١٩٨٤م)، ٥٤٦.

(٩) سورة الأعراف، الآية ١٠١. وفي هذه الآية إشارة لقصص قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الرسل. انظر: محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن* (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨م)، ٩: ١٠.

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ . (١٠) وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١١﴾ ﴾ . (١١)

كما ورد القصص - أيضا - في الأحاديث النبوية الشريفة، وكان يهدف - كذلك الذي جاء في القرآن الكريم - إلى الموعظة والتذكير بما أصاب الأقوام السابقة التي عصت رسل الله سبحانه وتعالى، وكان موضوعه يدور حول أخبار تلك الأقوام مع أنبياء الله سبحانه وتعالى، كيوسف وأيوب وموسى وغيرهم. (١٢)

وقد رُوي الوعظ والتذكير في القرآن الكريم والأحاديث النبوية بأسلوب قصصي، وذلك لما في هذا الأسلوب من أثر نافذ ووقع محبب في نفوس المُتلقين سواء كانوا مستمعين أو قارئين.

وبعد ظهور الإسلام، مرَّ القُصَّاص والقصص بمراحل من التطور؛ ففي نشأتهما الأولى، على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، كان يُطلق اسم القاص على صاحب الموعظة، والقصة على التذكير والوعظ. (١٣)

---

(١٠) سورة الأعراف، الآية ١٧٦. وانظر تفسير الآية عند: الطبري، *جامع*، ٩: ١٣٠. وانظر أيضا: محمود بن عمر الزمخشري، *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*، ط٣ (القاهرة: دار الريان، ١٩٨٧م)، ٢: ١٧٧-١٧٩.

(١١) سورة يوسف، الآية ١١١. وانظر تفسير الآية عند: الطبري، *جامع*، ١٣: ٨٩-٩١؛ الزمخشري، *الكشاف*، ٢: ٥١٠-٥١١.

(١٢) حول القصص النبوي، انظر: أبا إسحاق الحويني الأثري، *صحيح القصص النبوي*، ط١ (جدة: مكتبة الصحابة، ١٤١١هـ)؛ وانظر أيضا: محمد محمد حسن شُراب، *تميم بن أوس الداري*، ط١ (دمشق: دار القلم، ١٩٩٠م)، ١٩٦-١٩٧.

(١٣) يلاحظ أن هناك ارتباطا كبيرا في المعنى بين القصص والوعظ والتذكير؛ فابن الجوزي يقول بأن القصص هو شرح الحكاية الماضية، والوعظ هو تعريف الناس بنعم الله سبحانه وتعالى وحثهم على شكره وتحذيرهم من مخالفة أوامره. أما الذكر فهو « تخويف يرق له القلب. » ويطلق كثير من الناس على الواعظ اسم القاصّ، وعلى القاصّ اسم المذكر. كما أن اسم القاصّ صار ينطبق على من يقوم بالذكر والوعظ. انظر: ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٩-١١؛ انظر أيضا: ابن منظور، *لسان*، ٤: ٣١٠؛ ٧: ٤٦٦.

وكان قُصَّاص هذه الفترة التاريخية متأثرين بقصص القرآن الكريم ومواعظه. فكانوا يقصون أخبار الرسل والأمم السابقة في المجالس بهدف تذكير الناس. ويروون المواعظ بأسلوب قصصي ليمتلكوا قلوب المستمعين ويشدوا أسماعهم إليهم.

ولم يكن يقترن باسم القُصَّاص في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ما التصق بهم من المذمة والإنكار - خلال تطور القصص - في عهد الخلفاء الراشدين ومن أتى بعدهم. ويؤيد ذلك مارُوي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، من امتداحه للقُصَّاص الصالحين وقعوده في مجالسهم.(١٤) بل، وتشير بعض المصادر إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم، كان يقص على أصحابه أخبار الرسل والأنبياء السابقين عليه.(١٥)

---

(١٤) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، *سُنن أبي داود*، تحقيق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، ط١ (بيروت: دار الحديث، ١٩٧٣م)، ٤: ٧٢-٧٤؛ وانظر أيضا: أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، *مسند الإمام أحمد بن حنبل*، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩١م)، ٦: ٣٤٩، ٥٠٤؛ ٤: ٥٢٠؛ ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ١٤-١٥.

(١٥) يروي الطبري في تفسيره عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [سورة يوسف: الآية ٣]، أن أصحابه عليه الصلاة والسلام سألوه أن يقص عليهم فدلهم الله سبحانه وتعالى على أحسن القصص وهو القرآن الكريم؛ انظر: الطبري، *جامع*، ١٢: ١٥٠؛ ٩: ١٣٠؛ وانظر أيضا: علي بن أحمد الواحدي، *أسباب نزول القرآن*، تحقيق كمال زغلول، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١م)، ٢٧٥-٢٧٦.

كما يروي ابن إسحاق شعرا عن أبي قيس صرمة - وهو راهب وشاعر في الجاهلية ثم أسلم بعد قدوم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة، يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقص على أصحابه في المدينة قصص الرسل السابقين عليه. ومما قاله أبو قيس في شعره ما يلي:

ثوى في قريش بضع عشر حجة ... يذكر لو يلقي صديقا مؤاتيا

. . . . . .

فلما أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسرورا بطيبة راضيا

. . . . . =

غير أن رواية القصص لم تكن مباحة لعامة الناس، وإنما كانت مقصورة على ولاة الأمر أو من ينوب عنهم. (١٦) حيث كانوا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم هم الذين يقومون بإلقاء القصص في الخطب، ويتولون وعظ الناس وتذكيرهم، ويقصون عليهم أخبار الأمم السالفة. (١٧)

وعلى الرغم من القيود التي وضعت على من يتولى أمر القصص في العصر النبوي، فقد تفشت ظاهرة القُصّاص - غير المعينين رسميا - بين العوام في عصر الخلفاء الراشدين؛ حيث كانوا ينتشرون في المساجد والطرقات من غير أن تكون لهم صفة رسمية. وكانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير آيات القرآن الكريم وبكثير من مرويات أهل الكتب السماوية وتراثهم الديني. (١٨) كما كانوا يستهوون العامة بدمج قصصهم بالأخبار والحكايات التي تحتوي على الكثير من أخبار الغيب والمعجزات وخارق العادات. (١٩)

ونتيجة لذلك، تشدد الخلفاء الراشدون وضيقوا على القُصّاص. فقد رُوي أن الخليفة

= يقص لنا ما قال نوح لقومـــــه وما قال موسى إذ أجاب المناديا

. . . . . .

انظر: أبا محمد عبدالملك بن هشام، *السيرة النبوية*، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.)، ٢: ١٥٨-١٥٩؛ عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *المعارف*، تحقيق ثروت عكاشة، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ٦١؛ الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ٢: ٣٨٥.

(١٦) انظر: ابن حنبل، مسند، ٧: ٤٣، ٤٥؛ أبا زيد عمر بن شبه، *تاريخ المدينة المنورة*، تحقيق فهيم محمد شلتوت (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، د.ت.)، ١: ٩؛ ابن الجوزي، *القُصّاص*، ٢٨؛ السيوطي، *القُصّاص*، ٢٢٤.

(١٧) انظر: ابن الجوزي، *القُصّاص*، ٢٨-٢٩؛ ابن منظور، *لسان*، ٧: ٧٤-٧٥.

(١٨) ضيف، *العصر الجاهلي*، ٤٠٨.

(١٩) متز، *الحضارة*، ٢: ١٢٦. انظر أيضا: علي بن محمد بن سلطان القاري، *الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة*، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م)، ٤١٥.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يمنع القُصَّاص ويحذرهم من أن يقصوا في المساجد.[٢٠] كما قام بالحد من كثرتهم وذلك بجمعهم على قاص واحد وهو تميم بن أوس الداري،[٢١] الذي تكاد تجمع الروايات على أنه أول من قص في المدينة بصفة رسمية.[٢٢] حيث أمره الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن يقص يوم السبت من كل أسبوع.[٢٣] فكان تميم يعظ الناس؛ حيث يقرأ عليهم سور القرآن الكريم، ويأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر.[٢٤]

ثم شاع القصص في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وظهر أكثر من قاص في عهده. فقد وسّعَ في الإباحة للقُصَّاص بأن جعل للقصص - الذي يسرده القُصَّاص - يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع.[٢٥]

وخلال فترة الاضطراب السياسي التي بدأت بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٣٥هـ/ ٦٥٦م، وماصاحبها وتبعها من صراعات وحروب أهلية بين المسلمين، انتشر القُصَّاص بأعداد كثيرة في المساجد والطرقات.

---

(٢٠) ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١١؛ السيوطي، *القُصَّاص*، ٢٢٣-٢٣٤.

(٢١) انظر ترجمته وأخباره عند: محمد بن سعد بن منيع البصري، *الطبقات الكبرى* (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ٧: ٤٠٨-٤٠٩؛ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (عهد الخلفاء الراشدين)*، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م)، ٦١٠-٦١٧. وليس لهذا الكتاب أجزاء، بل سنوات للعهود والحوادث، وسيشار إليه كما اعتمده المحقق.

(٢٢) ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١٢، ١٥؛ ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٢٢؛ الذهبي، *تاريخ (عهد الخلفاء الراشدين)*، ٦١٦؛ السيوطي، *القُصَّاص*، ٢٣٩. ومن جهة أخرى كان عُبيد بن عُمير الليثي أول من قص بمكة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب؛ انظر: ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١٣؛ ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٢٢؛ وانظر أيضا: قصاص الزبيريين في هذه الدراسة.

(٢٣) ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١١. ويُروى أنه كان يقص يوم الجمعة؛ انظر: السيوطي، *القُصَّاص*، ٢٣٩.

(٢٤) السيوطي، *القُصَّاص*، ٢٣٩؛ شُراب، تميم، ٢٠٥.

(٢٥) ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١١-١٢، ١٥؛ ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٢٣.

غير أن الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه تشدد في أمر هؤلاء القُصَّاص، وذلك لأن غالبيتهم لا يعرفون أحكام القرآن الكريم والناسخ والمنسوخ، (٢٦) ويكثرون من الحكايات الكاذبة والتي تتفق وميول العامة بما فيها من خرافات أبعد ما تكون عن الصحـــة. (٢٧) حتى إنه قام بطردهم من مسجد البصرة عندما انتقل إلى العراق، ولم يستثن إلا قلة منهم وهم الذين كانوا يتحرون الصدق في قصصهم. (٢٨)

---

(٢٦) يروي السيوطي أن عليا بن أبي طالب سأل أحد القصاص الذي كان يذكر الناس بالمسجد إن كان يعرف الناسخ والمنسوخ، فأجاب بالنفي، فقال له علي: «فاخرج من مسجدنا ولا تُذكر فيه»؛ السيوطي، *القُصَّاص*، ٢٤١. والناسخ والمنسوخ تعني الآيات القرآنية التي بدلها الله سبحانه وتعالى وأزال حكمها بآيات أخرى. انظر هنا تفسير سورة البقرة، الآية ١٠٦ عند: الطبري، *جامع*، ١: ٤٧٥-٤٨١؛ انظر أيضا: ابن الجوزي، *نواسخ القرآن*، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٥م)؛ السيوطي، *الإتقان*، ٢: ٢٧-٣٥.

(٢٧) ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ١٣٠-١٣١؛ السيوطي، *القُصَّاص*، ١٦٣-١٦٤. وحول أساليب بعض القُصَّاص في استغلال العامة، انظر: ابن قتيبة، *تأويل مختلف الحديث*، تحقيق محمد زهري النجار (بيروت: دار الجيل، د. ت)، ٢٨٩؛ علي بن الحسين بن علي المسعودي، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٤ (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٦٤م)، ٣: ٤٤.

(٢٨) يذكر الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) - وهو من المصادر المتأخرة - أن الحسن البصري كان أحد الذين استثناهم الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، من الطرد من مسجد البصرة، ولكنه لم يشر إلى أسماء غيره من القُصَّاص. انظر: محمد بن أحمد الغزالي، *إحياء علوم الدين*، ط١ (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢م)، ١: ٤٨؛ السيوطي، *القُصَّاص*، ٢٤١؛ أحمد أمين، *فجر الإسلام*، ط١١ (القاهرة: د. ن.، ١٩٧٥م)، ١٥٩-١٦٠. والحسن بن يسار البصري، ولد سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م وتوفي سنة ١١٠هـ/ ٧٢٨م. **انظر ترجمته عند**: ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ١٥٦-١٧٨؛ الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٤٨-٦٣. **انظر أيضا في هذه الدراسة**: قُصَّاص الأمويين. وبالرغم من أن عمر الحسن البصري، **عندما كان يقص في مسجد البصرة**، حوالي ١٥ أو ١٦ سنة، إلا أن بعض المصادر تشير بأنه كان **يحفظ القرآن**، وعمره ١٤ سنة. انظر: ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ١٥٧؛ الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٥٠-٥١.

بداية القصص السياسي

بدأ ظهور القصص السياسي والقُصَّاص المُسَيَّسين مع تطور الأحداث السياسية التي واكبت الأمة الإسلامية منذ الفتنة الأولى (٣٥-٤١هـ/ ٦٥٦-٦٦١م)، والتي بدأت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٣٥هـ/ ٦٥٦م، وانتهت بتولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة سنة ٤١هـ/ ٦٦١م. فبعد أن كان القصص يقوم به القُصَّاص، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، بهدف الوعظ والتذكير والإرشاد، أصبح منذ هذه الفتنة وسيلة وأداة سياسية يستعين بها كل حزب على ترويج أفكاره ومبادئ حزبه والدعوة له.[٢٩]

والواقع، أن مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه ترتب عليه انقسام وحدة المسلمين وتمزق الأمة الإسلامية إلى حركات وفرق سياسية. وكان لكل حركة وفرقة أفكارها عن الحكم والسلطة التي تخالف الأخرى وتعارضها. وبذلك خرجت الجماعة الإسلامية من نظام الدولة الواحدة القائمة على خليفة واحد - هو أمير للمؤمنين - إلى نظام سياسي متعدد، تعبر عنه حركات سياسية متعارضة في أهوائها وميولها.[٣٠]

ويمكن تتبع جذور القُصَّاص المُسيسين، أي المعبرين عن الحركات والدولة القائمة التي كانوا يمثلونها، من خلال الصراع الذي بدأ بين أنصار كل من علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. فبعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٣٥هـ/ ٦٥٦م، تولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة، ولكن الأمويين بزعامة معاوية بن أبي سفيان رفضوا الدخول في بيعته وعارضوا سلطته، ورفعوا لواء المناداة بالثأر لمقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.[٣١]

---

(٢٩) أمين، *فجر الإسلام*، ١٦٠.

(٣٠) انظر: أحمد إبراهيم الشريف، *دور الحجاز في الحياة السياسية في القرنين الأول والثاني للهجرة* (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.)، ٤٠٥.

(٣١) انظر: أبا حنيفة بن داود الدينوري، *الأخبار الطوال*، تحقيق حسن الزين (بيروت: دار الفكر الحديث، ١٩٨٨م)، ١١٩، ١٢٢-١٢٣، ١٢٤-١٢٥؛ الطبري، *تاريخ*، ٤: ٤٤٤-٥٥٠، ٥٦٠، ٥٦٢؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣: ٢-٣، ٢٧٥-٢٧٦.

ومهما يكن من دوافع هذا الصراع والعداء المشترك بين علي وأنصاره ومعاوية ومؤيديه، فقد انتهى بتدعيم سلطة معاوية في الشام، وتلاشي سلطة علي، وخصوصا بعد التحكيم، ومهاجمة جيوش معاوية للمناطق والمدن الخاضعة والموالية لعلي. (٣٢)

والواقع أن الصراع بين علي ومعاوية لم يقتصر على الحرب العسكرية، بل تطور الأمر إلى الحرب الدعائية السياسية. وذلك عندما قام معاوية بتعيين القُصَّاص لهذا الغرض. فيروي المقريزي عن يزيد بن أبي حبيب (ت ١٢٨هـ/ ٧٤٥م): «أن عليا رضي الله عنه قنَت فدعا على قوم من أهل حربه فبلغ ذلك معاوية فأمر رجلا يقص بعد الصبح وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام...، وكان ذلك أول القصص.» (٣٣) والمؤكد، أن المقصود هنا بـ «أول القصص» هو القصص السياسي المعبر عن الحركة المعارضة والموالي لها، وهو القصص الذي أوجده معاوية منذ الفتنة الأولى.

ويُدعم ابن شبَّه (ت ٢٦٢هـ/ ٨٨٦م) - وهو من المصادر المتقدمة - ماسبق ذكره، حيث يروي بأن: «القصص حديث أحدثه معاوية حين كانت الفتنة.» (٣٤) وإذا عُرف بأن كلمة «أحدث» تعني أوجد وابتدع شيئا جديدا غير معروف من قبل لا في كتاب ولا سنة، (٣٥) وإذا عُـرف - أيضا - بأن القصص القائم على الوعظ والتذكير كان موجوداً منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلـم، أمكن الاستنتاج بأن القصص الذي أوجده معاوية

---

(٣٢) أحمد بن جعفر بن واضح اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار صادر، ١٩٩٢م)، ٢: ١٩١-١٩٩؛ الطبري، *تاريخ*، ٥: ١٣٣-١٣٦.

(٣٣) أحمد بن علي المقريزي، *كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية* (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.)، ٢: ٢٥٣؛ أمين، *فجر الإسلام*، ١٦٠؛ شُراب، تميم، ٢٠٤. وانظر أيضا دعاء علي بن أبي طالب على معاوية وأنصاره عند: الطبري، *تاريخ*، ٥: ٧١.

(٣٤) ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١١.

(٣٥) ويعني الحدث - أيضا - نقيض القديم، وهو الأمر المنكر الذي ليس بمعتاد ولا معروف في السنة، ومنه محدثات الأمور أي ما ابتدعه أهل الأهواء من الأشياء التي كان السلف الصالح على غيرها. انظر: ابن منظور، *لسان*، ٢: ١٣١-١٣٤؛ Lane, *Lexicon*, 1:825.

هو القصص السياسي الدعائي والذي اتخذه معاوية كأداة من أدوات النضال السياسي ضد خصومه وأعدائه.

ومن هنا، بدأ القصص يأخذ بُعدا ومسارا سياسيا جديدا لتدعيم الحركات السياسية المعارضة والدفاع عنها، وكان البداية الحقيقية لظهور القُصَّاص المعينين من قبل الدولة الأموية. فأصبح للقاص وظيفة رسمية ودور سياسي بتعيين من الخليفة الأموي على أساس كفاءته ومقدرته في مساندة الدولة. ولكن، ماهو دور أول خلفاء بني أمية في تأسيس هذا القصص السياسي وتطويره؟

معاوية بن أبي سفيان واهتمامه بالقصص السياسي

كان معاوية بن أبي سفيان من الحذق والذكاء بحيث أدرك أهمية القصص ووظيفة القُصَّاص السياسية، وعرف كيف يستغلهم لتدعيم سلطته وخلافته. وكما سبق و لُوحظ فقد كان اهتمام معاوية بالقصص والقُصَّاص منذ الفتنة الأولى. وكان القصص الذي أوجده معاوية يُعرف بقصص الخاصة.[٣٦] وهو القصص الخاص بالدولة، الموالي لها، والمدافع عنها ضد أعدائها. وكان معاوية يعين الرجال لهذا المنصب ويوليهم القصص.[٣٧]

ويشير المقريزي إلى وظيفة قصص الخاصة (الموالي للدولة) وصفتها، حيث يروي عن الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ/ ٧٩١م) بأن معاوية: «ولى رجلا على القصص فإذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجَّده، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولحشمه وجنوده ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة.»[٣٨]

---

(٣٦) وهو بخلاف قصص العامة، يروي المقريزي أن القصص نوعان: «قصص العامة وقصص الخاصة. فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع إليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم، وذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه. وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية: ولي رجلا على القصص.»؛ المقريزي، *الخطط*، ٢: ٢٥٣.

(٣٧) ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١٠-١١؛ ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٢٣.

(٣٨) المقريزي، *الخطط*، ٢: ٢٥٣؛ متز، *الحضارة*، ٢: ١١٠؛ انظر أيضا: سعيد الأفغاني، «معاوية في الأساطير،» *المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام*، ط١ (بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٤م)، ٥٢.

وكانت وظيفة القُصَّاص الرسميين والمسيسين هي أن يقصوا على الناس في المساجد. حيث أُتخذوا وسيلة من وسائل تنفيذ سياسة الدولة الدعائية ضد أعدائها، فهم المتكلمون باسمها أمام حشد المصلين والمعبرين عن توجهها السياسي.

ولا غرابة أن يهتم معاوية بالقُصَّاص، فقد كان الاستماع إلى أخبارهم ومروياتهم جزءا من حياته اليومية. ويؤكد ذلك المسعودي حيث يصور يوما من حياة معاوية بقوله: «كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن في اليوم والليلة خمس مرات: كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ أجزاءه، . . . . حتى ينادى بالعشاء الآخرة، فيخرج فيصلي، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدرا من ليلتهم، ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها، . . . ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، ثم يخرج فيصلي الصبح، ثم يعود فيفعل ماوصفنا في كل يوم.»[٣٩]

ويُظهر هذا النص مدى عناية معاوية بالقُصَّاص وملازمته لهم يوميا حتى ينتهوا من قصصهم. كما يُظهر - أيضا- مدى استفادته من مرويات وسير وتجارب الأمم السابقة، تلك الفائدة التي طبعت شخصية معاوية بصفة السياسي المحنك والمداري للأمور، والتي مكنته من أن يسوس دولته في فترة حكمه الطويلة.

وبالإضافة إلى اهتمام معاوية بالقُصَّاص والقصص، لدورهما في إقناع العامة وكسب الأنصار والمؤيدين له ولجماعته، اتخذ - كذلك - عدة إجراءات تنظيمية تجاه القُصَّاص؛ فالقاص في عهده، وإن أصبح يمثل وظيفة رسمية بتعيين من الخليفة نفسه، إلا أنه لم يكن يتقاضى عطاء على قصصه في هذه الفترة المبكرة. فقد روى ابن شبَّه أن معاوية أرسل إلى رجل يريد أن يوليه القصص، فقال لمعاوية: «جز لي.» فقال له معاوية: «اجلس في بيتك.»[٤٠]

(٣٩) المسعودي، مروج، ٣: ٣٩-٤١.

(٤٠) ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١٠.

ويبدو أن رفض معاوية إعطاء مصروف لهذا القاص، راجع لرغبة معاوية بأن يكون القاص مواليا للدولة بدون مكافأة مالية على ذلك. أضف إلى ذلك، قُرب خلافة معاوية لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، حيث كان القُصَّاص لايتقاضون أجرا على قصصهم، بل كان رغبة منهم.

ومن جهة أخرى، تشدَّد معاوية تجاه القُصَّاص الذين كانوا يقصون بدون إذن وسماح من الدولة الأموية أو من ينوب عنها. فعندما حج معاوية في إحدى السنوات، أُخبر بقاص يقص على أهل مكة، فأرسل إليه ووبخه وتهدده قائلا له: «أُمرتَ بهذا القصص؟ قال: لا. قال: فما حملك على أن تقص بغير إذن؟ قال: ننشر علماً علمناه الله عز وجل. قال له معاوية: لو كنتُ تقدمتُ إليك لقطعت منك طابقا.»(٤١)

والواقع، أن هذا القاص لم يكن ينشر علما علمه إياه الله سبحانه وتعالى، أو بمعنى آخر لم يكن واعظا ومذكرا، وإلا لما انتقده الخليفة معاوية وهدده. ولكن تأنيب الخليفة معاوية لهذا القاص راجع لتخوفه مما يثيره القُصَّاص من تعصب وموالاة لغير الدولة القائمة، وبالتالي تفرق وحدة الجماعة الإسلامية التي اتحدت بخلافته سنة ٤١هـ/ ٦٦١م، حيث أطلق على ذلك العام «عام الجماعة» لاجتماع المسلمين فيه على خليفة واحد.(٤٢) حتى أن معاوية بعد أن توعد قاص أهل مكة، خطب فيهم وحذرهم من الفرقة والانقسام،

---

(٤١) أحمد بن يحيى البلاذري، *أنساب الأشراف* (بنو عبد شمس)، تحقيق إحسان عباس (فيسبادن: نشر فانتس شتايز؛ بيروت: د.ن.، ١٩٧٩م)، ١: ٤: ٤٥. وانظر أيضا: يعقوب بن سفيان الفسوي، *كتاب المعرفة والتاريخ*، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط١ (المدينة المنورة: مكتبة الدار، د.ت.)، ٢: ٣٣١؛ السيوطي، *القُصَّاص*، ٢٢٥-٢٢٦. وانظر تشكك معاوية في حلقات الذكر بالمساجد؛ ابن حنبل، مسند، ٥: ٥٥. وكلمة «طابق» التي وردت في رد معاوية تعني: العضو من أعضاء الإنسان كاليد والرجل وغيرهما، ابن منظور، *لسان*، ١: ٢١٢.

(٤٢) انظر: الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٢٤؛ أحمد بن محمد بن عبد ربه، *العقد الفريد*، تحقيق عبدالمجيد الترحيني، ط ٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م)، ٥: ١٠٩-١١٠.

وحثهم على الوحدة والجماعة.[٤٣] وهكذا، كان لمعاوية دور في تأسيس القصص السياسي، الذي تعددت أغراضه وتنوعت أهدافه عند القُصَّاص الأمويين.

القُصَّاص الأمويون ومجال قصصهم

طرق القُصَّاص الأمويون مواضيع عديدة، وكانت جميعها تصب في قالب واحد وهو تأييد بني أمية وشرعيتهم السياسية. فمن تقديسهم لبلاد الشام ومدنه، إلى مشاركتهم في الحروب. ومن انتقاصهم لمعارضي بني أمية والخارجين عليهم، إلى تدعيمهم للإجراءات السياسية التي اتخذها الأمويون وتمثيلهم للجماعة الإسلامية المنضوية تحت لواء الدولة الأموية.

تفضيل القُصَّاص لبلاد الشام ومدنه

أطنب بعض القُصَّاص الأمويين في تمجيد بلاد الشام عامة وبعض مدنه خاصة. ولمعرفة هذا النوع من القصص، لعل من المفيد الإشارة بإيجاز إلى بدايته وجذوره الأولى. فالملاحظ أنه اشتهر في عهد معاوية وخلال ولايته لبلاد الشام عدد من القُصَّاص وأهمهم: كعب الأحبار[٤٤] ووهب بن منبه.[٤٥]

وقد نقلا - كعب ووهب - بعد إسلامهما الكثير من شروح وتفاسير ديانتهم القديمة، اليهودية، والتي وُجدت في التوراة، ورواياها في الشام بعد استقرارهما بها. وكان لها

---

(٤٣) الفسوي، *المعرفة*، ٢: ٣٣١؛ السيوطي، *القُصَّاص*، ٢٢٦. وحول انقسام الأمة الإسلامية إلى فرق، انظر: عبدالقاهرة بن طاهر البغدادي، *الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم*، ط٣ (بيروت: دار الآفاق، ١٩٧٨م)، ٢-٧.

(٤٤) انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ٤٤٥-٤٤٦؛ ابن الأثير، *أُسد الغابة في معرفة الصحابة* (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٩م)، ٤: ١٨٧. وقد عده ابن الجوزي من أعيان المذكرّين من أهل الشام؛ ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٨٣. وانظر مواعظه وأخباره عند: أحمد بن عبدالله الأصبهاني، *حلية الأولياء وطبقات الأصفياء*، ط٥ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م)، ٥: ٣٦٤-٣٩١.

(٤٥) انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٥٤٣؛ الذهبي، *تاريخ* (١٠١-١٢٠هـ)، ٤٩٧-٥٠٠. وقد عده ابن الجوزي من أعيان المذكرّين من أهل اليمن؛ ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٦٣-٦٤. وعن قصص وهب ومواعظه انظر: الأصبهاني، *حلية*، ٤: ٢٣-٨١.

الأثر الكبير في دخول الكثير من القصص اليهودي إلى الدين الإسلامي، وهو ما أصبح يُعرف بالإسرائيليات، أي ماينقل عن بني إسرائيل ويندر صحته. (٤٦)

وقد توسع هذان القاصان في تفسير قصص الأنبياء وأخبار المدن التي أوردها القرآن الكريم مُجملة وبدون تفصيلات زائدة. (٤٧)

ومن المهم هنا التركيز على كعب الأحبار، وذلك لما في قصصه الديني من مغزى وتأثير سياسي استمر مؤثرا في العصر الأموي، بدءا من ولاية معاوية على الشام ومن ثم خلافته، وانتهاء بعهد بعض المتأخرين من خلفاء بني أمية.

وكعب الأحبار كان يهوديا من اليمن، أسلم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وانتقل إلى المدينة، ثم خرج إلى الشام وسكن حمص. (٤٨) وكان كعب يقص في مسجد حمص، ثم امتنع عن القصص لسماعه أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم تنهي عن القصص إلا بإذن من السلطة. (٤٩) وبعد ولاية معاوية على الشام سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م، أمر كعب أن يقص واستمر في ذلك حتى وفاته سنة ٣٢هـ/ ٦٥٣م. (٥٠)

ويشير بعض قصص كعب إلى مغزى سياسي ذي مدلول ديني، وكمثال على ذلك قصصه عن الأرض والأقاليم حيث يقول: « نجد صفة الأرض في كتاب الله - [يعني التوراة] - على صفة النسر، فالرأس الشام، والجناحان المشرق والمغرب، والذنب اليمن،

---

(٤٦) انظر: ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ١٠؛ السيوطي، *القُصَّاص*، ٢٧٠؛ انظر أيضا: محمد بن محمد أبو شهبة، *الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير*، ط٤ (القاهرة: مكتبة السُنة، ١٤٠٨هـ)، ١٢-١٣، ١٠٠-١٠٦.

(٤٧) انظر: خليل بن داود الزرو، *الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة*، ط١ (بيروت: دار الآفاق، ١٩٧١م)، ٢٤.

(٤٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ٤٤٥؛ ابن قتيبة، *المعارف*، ٤٣٠.

(٤٩) توقف كعب الأحبار عن القصص عندما سمع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم والذي يقول: « لايقص إلا أمير أو مأمور أو مختال.» انظر: أبا داود، *سُنن*، ٤: ٧١-٧٢؛ ابن حنبل، مسند، ٧: ٤٥؛ ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٢٨.

(٥٠) ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٢٨؛ انظر أيضا: ابن قتيبة، *المعارف*، ٤٣٠.

فلا يزال الناس بخير مابقي الرأس . »[٥١]

هذا القصص له دلالة سياسية، فهو ليس فقط تعظيم لبلاد الشام، بل فيه كذلك تعظيم لمن سكن الشام، وهم الأمويون. وأن مايطرأ على الناس في البلاد الأخرى من سعة ورغد في العيش راجع لبقاء الرأس وهو الشام وبالطبع من سكنه. كما يفهم منه - أيضا - بأنه إذا كانت الشام الرأس فإن من سكنها وهم الأمويون، أحق بالرئاسة والقيادة.

ولاشك أن خلفية كعب الدينية وسكناه الشام، موطن المقدسات اليهودية، بالإضافة إلى موالاته لبني أمية، كان لها دور كبير في اختلاق هذا النوع من القصص والذي يُضفي قدسية على الشام ومن سكنها ويُدعم سلطة بني أمية.

وكان لقصص كعب عن الأقاليم والمدن تأثيرٌ على معاصريه، واستمر ذلك مكتوبا ومتداولا بين الناس في العصر الأموي. فقد تأثر بقصصه بعض الصحابة المعاصرين لكعب، ومن هؤلاء أبو الدرداء عويمر بن مالك الأنصاري (ت ٣٢هـ/ ٦٥٣م)،[٥٢] وهو من أشهر القُصاص والمذكرين بالشام.[٥٣] وكان يقص عن المدن وفضلها. وكان قصصه متداولا بين الناس، حتى أن أهل الشام كانوا يكتبون قصصه في صحف، بالرغم من أنه قوبل بمعارضة شديدة من قبل بعض الصحابة المعاصرين له ومنهم عبدالله بن مسعود.[٥٤]

---

(٥١) علي بن الحسن بن عساكر، *تاريخ مدينة دمشق*، تحقيق صلاح الدين المنجد (دمشق: مطبعة المجمع العلمي، ١٩٥١م)، ١: ١٧٩؛ الزرو، *الحياة العلمية*، ٢٣.

(٥٢) انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ٣٩١-٣٩٣؛ ابن قتيبة، *المعارف*، ٢٦٨؛ الأصبهاني، حلية، ١: ٢٠٨-٢٢٧.

(٥٣) ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٤٢، ٤٩.

(٥٤) يروي البغدادي أن رجلا من أهل الشام جاء إلى الصحابي عبدالله بن مسعود (ت ٣٢هـ/ ٦٥٢م) ومعه صحيفة فيها من قصص أبي الدرداء، وبعد أن قرأها عبدالله بن مسعود محاها بيده وهو يتلو قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ۝٣﴾ [سورة يوسف، الآية ١ - ٣]. انظر: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، *تقييد العلم*، تحقيق يوسف العش، ط٢ (د.م.: دار إحياء السنة النبوية، ١٩٧٤م)، ٥٤-٥٥؛ الزرو، *الحياة العلمية*، ٢٤.

والواقع، أن أهمية قصص كعب تكمن في أثره القوي واستمراره متداولا ولاقيا القبول في العصر الأموي، فتأثر بقصصه عن الأقاليم وتفاضلها بعض المتأخرين، ومنهم إياس بن معاوية بن قرة (ت ١٢٢هـ/ ٧٤٠م)، [٥٥] وهو قاضي البصرة في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٧-٧٢٠م). [٥٦]

وقد اشتهر إياس بالبلاغة والخطابة، فيروي الجاحظ أن إياسا قدم على حلقة من حلقات قريش والتي كانت تُعقد في مسجد دمشق فاستولى على من في المسجد ببلاغته وفصاحته. [٥٧] ويظهر تأثر إياس بقصص كعب عن الأقاليم واضحا في قوله: «مُثلت الدنيا على طائر، فمصر والبصرة الجناحان، والجزيرة[٥٨] الجؤجؤ، [٥٩] والشام الرأس، واليمن الذنب.» [٦٠] ولا يخلو هذا القصص من غاية يُراد إقرارها في أذهان العامة، وهي: التأكيد على مكانة الشام وأهميته، وكذلك أحقيته بالقيادة والرئاسة مقارنة بالأقاليم والمدن الأخرى الإسلامية.

وبالإضافة إلى تعظيم بلاد الشام، وُجد كذلك بعض القُصَّاص الذين بالغوا في تفضيل بعض مدنه؛ كدمشق عاصمة الأمويين. ومن هؤلاء خالد بن معدان الكلاعي

---

(٥٥) انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ٢٣٤-٢٣٥؛ الأصبهاني، *حلية*، ٣: ١٢٣-١٢٥.

(٥٦) ابن قتيبة، *المعارف*، ٤٦٧.

(٥٧) انظر: أبا عثمان عمر بن بحر الجاحظ، *البيان والتبيين*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٤ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٥م)، ١: ٩٨-١٠١.

(٥٨) الجزيرة: هي المنطقة التي بين نهري دجلة والفرات، وهي مجاورة للشام، وهي أرض واسعة كثيرة الخيرات ومن مدنها المشهورة حران والرها والموصل. انظر: ياقوت بن عبدالله الحموي، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر، ١٩٧٧م)، ٢: ١٣٤-١٣٦.

(٥٩) الجؤجؤ: مجتمع رؤوس عظام صدر الطائر، انظر: ابن منظور، *لسان*، ١: ٤١-٤٢.

(٦٠) عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا، *الأشراف في منازل الأشراف*، تحقيق نجم عبدالرحمن خلف، ط١ (الرياض: مكتبة الراشد، ١٩٩٠م)، ٢٠١-٢٠٢.

(ت ١٠٣هـ/ ٧٢١م)،[٦١] الذي يُعتبر من أشهر مذكري أهل الشام، حيث كانت له حلقة عظيمة يُذكر فيها .[٦٢]

ويروي ابن عساكر أن خالد بن معدان كان يُفسر قوله تعالى في الآيات التالية : ﴿ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾، [٦٣] وقوله تعالى : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾، [٦٤] وقوله تعالى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ ﴾، [٦٥] بأنها تعني جميعاً مدينة دمشق .[٦٦]

ولا ريب، أن خالد بن معدان قد استقى تأويل تلك الآيات من قُصَّاص أهل الكتاب الذين أسلموا . ومما يدعم ذلك أن تفاسير القرآن الكريم تمتلئ بالكثير من القصص عن المدن وفضلها والتي عُرفت بالإسرائيليات . وقد أخذها بعض الصحابة والتابعين من مسلمي أهل الكتاب ثم ألصقت فيما بعد بتفسير القرآن الكريم .[٦٧]

وبالرجوع إلى شرح كتب التفسير عن معنى الآيات الثلاث التي ذكرها خالد بن معدان بأنها تعني مدينة دمشق، يلاحظ بأن هناك اختلافا في تأويل معنى تلك الآيات عند المفسرين . فهي ليست مقصورة على تفسير وتأويل واحد، وهو مدينة دمشق، بل لها عدة تأويلات . ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ ، يروي المفسرون بأنها تعني المكان المرتفع المستوى والماء الظاهر، وهي الربوة التي آوى الله سبحانه وتعالى إليها

---

(٦١) انظر ترجمته عند : ابن سعد، *الطبقات*، ٧ : ٤٧٥ ؛ ابن عساكر، *تهذيب تاريخ دمشق الكبير*، هذبه عبدالقادر بدران، ط١ (بيروت : دار المسيرة، ١٩٧٩م)، ٥ : ٨٩-٩١ ؛ الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٧١-٧٣ .

(٦٢) ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٨٣-٨٤ ؛ انظر أيضا : ابن عساكر، *تهذيب*، ٥ : ٩٠ ؛ الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٧٢ .

(٦٣) سورة المؤمنون، الآية ٥٠ .

(٦٤) سورة الفجر، الآية ٨ .

(٦٥) سورة التين، الآية ١ .

(٦٦) ابن عساكر، *تاريخ*، ١ : ٢٠٥ ؛ الزرو، *الحياة العلمية*، ٥٣ .

(٦٧) أبو شهبة، *الإسرائيليات*، ٢٨٢ ، ٢٨٤ .

مريم وابنها عيسى عليه السلام .[٦٨] ويراد بها عند المفسرين عدة بلدان ومدن، ومن ضمنها الرملة في فلسطين، ودمشق، ومصر، وبيت المقدس التي يُروى عن كعب الأحبار بأنها قريبة من السمـــاء .[٦٩]

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ **إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ** ﴿٧﴾ ﴾ ، يذكر بعض المفسرين عدة روايات في تأويل معنى الآية، ومنها أن المقصود بها مدينة الإسكندرية أو دمشق .[٧٠] وبالرغم من ذلك، يؤكد الطبري في تفسيره بأن « إرم » اسم قبيلة وليس مدينة .[٧١]

أما تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ** ﴿١﴾ ﴾ ، فقد روى بعض المفسرين عدة تأويلات لمعنى الآية . فروى بعضهم بأن التين والزيتون جبلان من الأرض المقدسة في القدس، وهما منبتا التين والزيتون .[٧٢] كما روى بعضهم عن كعب الأحبار وغيره بأن

---

(٦٨) الطبري، *جامع*، ١٨ : ٢٧ .

(٦٩) الطبري، *جامع*، ١٨ : ٢٦-٢٧ ؛ الزمخشري، *الكشاف*، ٣ : ١٧٩-١٨٠ ؛ محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن* (الإسكندرية : دار الفتح الإسلامي، د.ت.)، ٧ : ٢٥ . وانظر أيضا : محمد بن أحمد عبدالهادي، *فضائل الشام*، تحقيق مجدي فتحي السيد (د.م. : دار الصحابة، ١٩٨٨م)، ٢٩ .

(٧٠) الطبري، *جامع*، ٣٠ : ١٧٥ ؛ القرطبي، *الجامع*، ١ : ٤٢٨ .

(٧١) الطبري، *جامع*، ٣٠ : ١٧٥-١٧٧ . وانظر أيضا : الزمخشري، *الكشاف*، ٤ : ٧٤٨ . هذا وقد ذهب البعض إلى القول بأن المقصود بإرم مدينة بناها أحد ملوك عاد في بعض صحاري عدن، وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وأنه عثر عليها في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان فسأل كعب الأحبار عنها فقال : هي إرم ذات العماد. الزمخشري، *الكشاف*، ٤ : ٧٤٨ ؛ القرطبي، *جامع*، ١٠ : ٤٢٨-٤٢٩ ؛ الثعالبي، *قصص*، ٨٣-٨٤ .

ولأن آثار الوضع واضحة على هذا القصص فقد شكك فيه بعض المؤرخين ؛ فابن خلدون يذكر أن هذه الحكايات عن المدن هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة التي هي أقرب إلى الكذب المنقول؛ انظر : عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة*، ط٤ (بيروت : دار إحياء التراث العربي، د.ت.)، ١ : ١٤ .

(٧٢) الطبري، *جامع*، ٣٠ : ٢٣٩ ؛ الزمخشري، *الكشاف*، ٤ : ٧٧٣-٧٧٤ .

التين : دمشق، والزيتون : بيت المقدس .[٧٣]

والجدير بالذكر هنا، أن الطبري يؤكد في تفسيره للتين والزيتون على ظاهر النص القرآني وليس تأويله. حيث يذكر بأن التين : هو التين الذي يُؤكل، والزيتون : هو الزيتون الذي يُعصر منه الزيت، ولا يُعرف جبل يُسمى تينا ولا جبل يُقال له زيتون .[٧٤]

يتضح مما سبق أن للآيات السابقة تأويلات عديدة عند المفسرين، وبالرغم من ذلك فقد قصرها خالد بن معدان على تأويل واحد، وهو أنها جميعا تعني مدينة دمشق. فهل وصل تأثير قُصَّاص مسلمي أهل الكتاب إلى هذا الحد في إضفاء التبجيل على بلاد الشام عامة ودمشق خاصة ؟ ولماذا اقتصر التمجيد على مدينة دمشق بالذات، بالرغم من أن هناك مدن أخرى لها قدسية في بلاد الشام ؟

المرجح أن الأمويين قد شجعوا هذا النوع من القصص الديني، ذي المدلول السياسي، والذي يتحدث عن فضل إقليم الشام وقاعدته دمشق على الأقاليم والمدن الأخرى. ففي ذلك تقديس للشام عامة ودمشق خاصة، وبالتالي تقديس لمن أقام بهما، وهم الأمويون .[٧٥]

ومما يؤيد قبول الأمويين لمرويات القُصَّاص عن تفضيل بلاد الشام ومدنه، ذلك الاهتمام الذي حظي به القُصَّاص في العصر الأموي، حتى أن كعب الأحبار - وهو منبع لكثير من ذلك القصص - كان له أثرة ومكانة خاصة عند معاوية، ولقي الكثير من التسامح خلال ولاية معاوية على الشام، على الرغم من شكه في بعض مروياته .[٧٦]

---

(٧٣) الطبري، *جامع*، ٣٠: ٢٣٩؛ القرطبي، *الجامع*، ١٠: ٤٨٦-٤٨٧. وانظر أيضا: ابن الجوزي، *فضائل القدس*، تحقيق جبرائيل سليمان جبّور، ط٢ (بيروت : دار الآفاق، ١٩٨٠م)، ٧٠ .

(٧٤) الطبري، *جامع*، ٣: ٢٣٨-٢٤٠. وانظر أيضا : القرطبي، *الجامع*، ١٠: ٤٨٦ .

(٧٥) الزرو، *الحياة العلمية*، ٥٣ .

(٧٦) يروي البخاري أن معاوية بن أبي سفيان كان يُحدث رهطا من قريش بالمدينة، وذكرَ كعب الأحبار فقال : « إن كان من أصدق هؤلاء المُحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب»؛ انظر : محمد بن إسمَاعيل بن إبراهيم البخاري، *صحيح البخاري (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة)*، تحقيق عبدالعزيز بن عبدالله بن باز (د.م. : دار الفكر، ١٩٩٤م)، ٨: ٢٠٢ . وانظر أيضا : أبا شهبة، *الإسرائيليات*، ١٠٢-١٠٣ .

وتشير بعض المصادر إلى تساهل معاوية تجاه كعب، فابن سعد يروي بأن كعبا كان يجلس في أحد المساجد ويقرأ في سفر من أسفار التوراة.(٧٧) كما يروي ابن عساكر بأن كعبا كان يبدأ بقراءة التوراة قبل القرآن الكريم وحين نبهه معاوية إلى ذلك، قال: «إن الله قد بدأ بالتوراة قبل القرآن.»(٧٨)

ومهما يكن من أمر هذه المعلومات عن كعب، إلا أنها تدل - إن صحت - على مدى تغلل التوراة ومافيها من إسرائيليات في الحياة الثقافية السائدة في مطلع العصر الأموي، ومدى تأثير تلك المرويات على بعض قُصَّاص الأمويين فيما بعد.

مساهمة القُصَّاص في الحروب

كان للقُصَّاص الأمويين دور سياسي كبير في الحروب التي كانت تشنها الدولة الأموية على أعدائها من المسلمين وغيرهم. وقد تمثل ذلك الدور في تحريض الجنود على القتال، ورفع عزيمتهم المعنوية والروحية، وبث الحماسة الدينية فيهم. وتلك بحق من القيم التي تُعتبر من أهم عوامل النصر في الحروب.

وقد اكتسب القُصَّاص من الصفات مايؤهلهم للقيام بذلك الدور، فقد كانوا ورعين وزُهَّادا وحفظة للقرآن الكريم.(٧٩) كما يُضفي الجاحظ على القُصَّاص صفات أخرى، حيث يذكر بأنه من تمام آلة القصص، أن يكون القاص شيخا ويتميز بالصوت البعيد المدى والجهوري.(٨٠)

ولاشك، أن ميزة الصوت العالي كانت مطلوبة في القاص في تلك الفترة التاريخية. وذلك لكي تصل مواعظه وتذكيره ودعاؤه - المعبرة عن الحزب الموالي له - إلى سامعيه، سواء كان ذلك في ساحة القتال أو في المسجد.

---

(٧٧) ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ١١٠؛ أمين، *فجر الإسلام*، ١٦١.

(٧٨) ابن عساكر، *تهذيب*، ٥: ٢٦٣-٢٦٤؛ الزرو، *الحياة العلمية*، ٢٣-٢٤.

(٧٩) حول هذه الصفات الخاصة بالقُصَّاص انظر: الجاحظ، *البيان*، ١: ٣٦٧-٣٦٩. وانظر أيضا: حسين عطوان، *الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي*، ط١ (عمّان: دار الجيل، ١٩٨٦م)، ١٠٩-١٧٢، ١٧٣-١٨٥.

(٨٠) الجاحظ، *البيان*، ١: ٩٣.

والمؤكد، أن الأمويين قد وعوا دور القُصَّاص في الحروب وأولوه أهمية كبرى. وليس ذلك بغريب، إذا عُرف، بأن بعض الأمويين كانوا - أنفسهم - قُصَّاصا، يعظون الجند ويحرضونهم على القتال. فقد كان أبو سفيان، صخر بن حرب هو القاص الذي يعظ جيوش المسلمين ويحرضهم على القتال في معركة اليرموك سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م.(٨١)

ويظهر دور القُصَّاص في العصر الأموي واضحا خلال المشاركة في الجيوش والحملات التي كانت تشنها الدولة الأموية لفتح الكثير من المناطق. ففي عهد الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٥-٧٠٥م) كان محمد بن واسع الأزدي(٨٢) - وهو أحد الدعاة والزهاد، ومن أشهر المذكرين -(٨٣) هو الذي يقوم بالوعظ والتحريض على القتال في جيش قتيبة بن مسلم الباهلي الموجه لفتح مناطق ماوراء النهر.(٨٤)

فعند التحام جيش المسلمين مع جيش الترك تهوّل قتيبة بن مسلم من كثرة أعداد الترك وقوتهم، وسأل عن محمد بن واسع وما يفعله، فقيل له: «ها هو ذاك في أقصى الميمنة جانحا على سية قوسه(٨٥) ينضنض(٨٦) بإصبعه نحو السماء. قال قتيبة: تلك

---

(٨١) الطبري، *تاريخ*، ٣: ٣٩٧؛ أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي، *الفتوح*، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م)، ١: ٢٠٤؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٢: ٤١١-٤١٢.

(٨٢) هو محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس الأزدي البصري، زاهد وورع ومن أفاضل أهالي البصرة، وقد توفي حوالي سنة ١٢٠هـ/ ٧٣٨م. انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ٢٤١-٢٤٢؛ الذهبي، *تاريخ* (١٢١-١٤٠هـ)، ٢٥٩-٢٦٣.

(٨٣) ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٧٣-٧٤؛ كما اعتبره الجاحظ من خطباء النساك والعُبَّاد؛ انظر: الجاحظ، *البيان*، ١: ٣٥٣.

(٨٤) ابن قتيبة، *المعارف*، ٤٠٦-٤٠٨؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ٤٩٩-٥١٩. وتشمل بلاد ماوراء النهر سمرقند وبخارى وخوارزم، وهي بلاد خصبة وكثيرة الخيرات. انظر: ياقوت، معجم، ٥: ٤٥-٤٧.

(٨٥) تعني جانحا: أي مائلا ومتكئا؛ ابن منظور، *لسان*، ٢: ٤٢٨. وسية القوس: رأسها وقيل ما أعوج من رأسها. ابن منظور، *لسان*، ١٤: ٤١٧.

(٨٦) ينضنض: أي يحرك، ويبدو أن المقصود هنا أنه يحرك إصبعه متكلما أو داعيا نحو السماء؛ ابن منظور، *لسان*، ٧: ٢٣٦-٢٣٨.

الإصبع الفـــاردة[٨٧] أحب إليَّ من مائة ألف سيف شهير وسنان طرير.[٨٨] »[٨٩]

ولا ريب، أن احتفاء قتيبة بن مسلم بمحمد بن واسع، واعتباره يعادل مائة ألف سيف مشهورة ورماح محددة، لم يكن راجعا لقوته وشجاعته في القتال، وإنما بسبب قصصه وما فيه من وعظ ودعاء، وتأثير قوي في رفع روح الجنود المعنوية ودفعهم للقتال مستبسلين ومضحين بأنفسهم.

وفي عهد الخليفة سليمان بن عبدالملك (٩٦-٩٩هـ/ ٧١٥-٧١٧م) كان القاص محمد بن واسع يساهم - كذلك - في جيش يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي الذي سُير لفتح مناطـــق جرجان.[٩٠] ولا يستبعد أن يكون دوره حث الجند على القتال وتقوية معنوياتهم.

وبالإضافة إلى القاص محمد بن واسع، كان عبدالله بن زيد الدمشقي،[٩١] هو المرافق للقائد الأموي مسلمة بن عبدالملك في حملات جيوش المسلمين المتجهة لغزو بلاد الروم بالقسطنطينية سنة ٩٨هـ/ ٧١٦م.[٩٢] وكان لعبد الله بن زيد دور فعال في تلك الحملات بمواعظه التي تقوي عزيمة الجنود على الجهاد، حتى أنه عُرِفَ بقاص القسطنطينية.[٩٣]

---

(٨٧) الفاردة: المنفردة والمتنحية التي لامثيل لها. ابن منظور، *لسان*، ٣: ٣٣١-٣٣٣.

(٨٨) السنان الطرير: الرمح المحدد، ابن منظور، *لسان*، ٤: ٤٩٩.

(٨٩) الجاحظ، *البيان*، ٣: ٢٧٣؛ الذهبي، *تاريخ* (١٢١-١٤٠هـ)، ٢٦٠؛ ضيف، *العصر الإسلامي* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م)، ٤٣٦.

(٩٠) ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٣٣.

(٩١) هو عبدالله بن زيد أو بن يزيد الدمشقي الأزرق القاص؛ انظر ترجمته عند: البخاري، *كتاب التاريخ الكبير* (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.)، ٥: ٩٣؛ الذهبي، *تاريخ* (١٠١-١٢٠هـ)، ١٣٦؛ أحمد بن حجر العسقلاني، *تهذيب التهذيب*، ط١ (بيروت: د.ن.، ١٩٩١م)، ٣: ١٤٩.

(٩٢) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٥٣٠-٥٣٢.

(٩٣) ابن حنبل، مسند، ٧: ٤٣؛ البخاري، *التاريخ*، ٥: ٩٣؛ ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ١٤٩.

والجدير بالذكر أن القُصَّاص شاركوا - أيضا- في الجيوش التي كانت تسيرها الدولة الأموية لمحاربة المعارضين والخارجين عليها من المسلمين أنفسهم. فعندما بايع أهل الشام معاوية بن أبي سفيان بالخلافة سنة ٤١هـ/ ٦٦١م، واجه معارضة الحسن بن علي بن أبي طالب الذي رفض إعطاء البيعة لمعاوية. وترتب على ذلك أن قاد معاوية جيشا إلى الكوفة لمجابهة الحسن وأخذ البيعة منه. (٩٤)

وكان القُصَّاص يشاركون في هذا الجيش بالوعظ وتلاوة القرآن. ويشير إلى ذلك البلاذري حيث يروي أن معاوية عندما سار إلى الكوفة كان معه قُصَّاص أهل الشام وقراؤهم يتلون القـــرآن. (٩٥)

كما أن البغدادي يذكر رواية لها نفس المضمون حيث يروي عن المدائني (ت ٢١٥هـ/ ٨٣٠م) أن القُصَّاص في جيش معاوية كانوا يقصون كل يوم على جند الشام، وهم في طريقهم إلى الكوفة، فيحرضونهم ويحضونهم عند كل صلاة، ويتلون عليهم سور القرآن الكريم. (٩٦)

وكان للقُصَّاص - كذلك - نصيبٌ في محاربة الخوارج في العصر الأموي. فعندما كان المهلب بن أبي صفرة الأزدي يعبئ الجنود ويجمعهم، استعدادا لمحاربة الخوارج الأزارقة، انضم إليه الكثير من الناس، رغبة في مجاهدة الخوارج وطمعا - في نفس الوقت- في الغنائم وعطايا المهلب، وكان فيمن قدمَ إليه القاص محمد بن واسع الأزدي. (٩٧)

ولم يقتصر دور القُصَّاص الأمويين على مجرد المساهمة في الحروب أو مرافقة القادة العسكريين، بل وصل الأمر لأن يكون قادة الحملات العسكرية قُصَّاصا يتولون أمرين في

---

(٩٤) حول أحداث هذه الفترة التاريخية، انظر: الدينوري، *الأخبار*، ١٦٥-١٦٦؛ الطبري، *تاريخ*، ٥: ١٥٨-١٥٩.

(٩٥) البلاذري، *أنساب الأشراف*، تحقيق محمد باقر المحمودي، ط١ (بيروت: دار المعارف، ١٩٧٧م)، ٤٢.

(٩٦) انظر: أحمد بن علي الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد* (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.)، ١: ٢٠٨؛ جودة، *القصص*، ١٠٨.

(٩٧) محمد بن يزيد المبرد، *الكامل في اللغة والأدب* (بيروت: مؤسسة المعارف، د. ت.)، ٢: ٢٢٧.

وقت واحد؛ قيادة الجيوش عسكريا ومعنويا في ميادين القتال.

ويظهر هذا الدور جليا خلال محاربة الحجاج بن يوسف الثقفي لفرقة الخوارج الصُفَّرية بقيادة شبيب بن يزيد الشيباني،[٩٨] الذي كان يقود مجموعته، القليلة العدد، من نصر إلى آخر ضد قوات الحجاج بن يوسف الثقفي، حتى وصل به الأمر إلى الاستيلاء على الكوفة سنة ٧٦هـ/ ٦٩٥م.[٩٩]

غير أن الحجاج بن يوسف لم يكن ليتوانى أمام انتصارات شبيب، فوجه إليه جيشا كبيرا بقيادة عتاب بن ورقاء الرياحي سنة ٧٧هـ/ ٦٩٦م.[١٠٠] وكان عتاب بن ورقاء يقص على جنوده القصص ليرفع من روحهم المعنوية ويقويهم على مواجهة الخوارج. فكان يسير في ميمنة وميسرة قواته، ويقف على أصحاب كل راية، فيحثهم على تقوى الله، ويأمرهم بالصبر ويقص عليهم.[١٠١]

ويروي الطبري عن شاهد عيان ما عبر به عتاب بن ورقاء في قصصه بقوله: «وقف علينا، فقص علينا قصصا كثيرا، كان مما حفظتُ منه ثلاث كلمات؛[١٠٢] قال: يا أهل الإسلام، إن أعظم الناس نصيبا من الجنة الشهداء، وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين، ألا ترون الله يقول: ﴿ **واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾. فمن حمدَ الله فعله فما أعظم درجته، وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي؛ ألا ترون أن عَدوكم هذا

---

(٩٨) انظر ترجمته وأخباره عند: خليفة بن خياط العصفري، *تاريخ خليفة بن خياط*، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٢ (الرياض: دار طيبة، ١٩٨٥م)، ٢٧٤-٢٧٦؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢١٩-٢٢٣؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٤١٧-٤١٨.

(٩٩) العصفري، *تاريخ*، ٢٧٤؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢٤٠-٢٤١؛ البغدادي، *الفرق*، ٩٠-٩١.

(١٠٠) العصفري، *تاريخ*، ٢٧٥؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢٥٩؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٣٣٠. وانظر ترجمة عتاب بن ورقاء الرياحي عند: ابن قتيبة، *المعارف*، ٤١٥.

(١٠١) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢٦٣؛ انظر أيضا: ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٤٢٢-٤٢٣.

(١٠٢) يبدو أن المقصود بقوله «ثلاث كلمات،» هو أن الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير والكلمُ لايكون أقل من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة. وقد تعني الكلمة الخطبة أو القصيدة. انظر هنا: ابن منظور، *لسان*، ١٢: ٥٢٣-٥٢٤.

يستعرض المسلمين بسيفه، لا يرون إلا أن ذلك لهم قُرْبة عند الله ! إنهم أشرار أهل الأرض وكلاب أهل النار؛ أين القصاص ؟ قال ذلك فلم يجبه والله أحد منّا؛ فلما رأى ذلك، قال : أين من يروي شعر عنترة ؟ قال : فلا والله ما رد عليه إنسان كلمة. فقال : إنا لله ! كأني بكم فررتم عن عتاب بن ورقاء وتركتموه. »[١٠٣]

ولا يخلو هذا القصص من بعض النقاط الجديرة بالتحليل والمناقشة. فعتاب بن ورقاء يُعبر فيه عن نظرة الأمويين للخوارج المحاربين لهم والخارجين على دولتهم. وهو يضفي على جيشه صفات المسلمين ليحرضهم على القتال. وباستشهادهم في هذا القتال سيكون مصيرهم الجنة.

ويحث عتاب بن ورقاء جيشه على الصبر في القتال لأن الله سبحانه وتعالى يشكر الصابرين. وهنا يُدعم عتاب بن ورقاء قصصه بإيراد الجزء الأخير من الآيتين التاليتين وهما : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾** ﴾. [١٠٤]

ويبدو أن عتاب بن ورقاء، باقتباسه الجزء الأخير من الآيتين السابقتين، يضفي على جيشه مضمون الآيتين بهدف تذكيرهم بأنهم مثل المؤمنين الأوائل في صفاتهم وطاعتهم ووحدتهم وصبرهم على عدوهم. [١٠٥]

ومن جهة أخرى، يصف عتاب بن ورقاء الخوارج بأنهم أصحاب « البغي » ومنه يُستدل على تلميح للبغي الذي ورد في القرآن الكريم بمعنى الظلم والتعدي والفساد. [١٠٦] كما ينتقد سلوكهم العدواني الذي يبيح دماء المسلمين فيصفهم بأنهم يستعرضون المسلمين،

---

(١٠٣) الطبري، *تاريخ*، ٦ : ٢٦٣-٢٦٤؛ ابن الاثير، *الكامل*، ٤ : ٤٢٢-٤٢٣ .

(١٠٤) سورة الأنفال، الآيتان ٤٥ و٤٦ .

(١٠٥) انظر تفسير الآيتين ٤٥ و ٤٦ من سورة الأنفال عند : الطبري، *جامع*، ١٠ : ١٤-١٦؛ الزمخشري، *الكشاف*، ٢ : ٢٢٦ .

(١٠٦) انظر على سبيل المثال لا الحصر : سورة القصص، الآية ٧٦؛ سورة ص، الآية ٢٢؛ سورة الحجرات، الآية ٩؛ سورة الأعراف، الآية ٣٣. وانظر تفسير البغي عند : الزمخشري، *الكشاف*، ٤ : ٣٦٤-٣٦٥؛ وانظر : ابن منظور، *لسان*، ١٤ : ٧٨-٧٩ .

أي يقتلون الرجال مع نسائهم وأطفالهم. (١٠٧)

ويستمر عتاب بن ورقاء - في قصصه - في الحط من شأن الخوارج فهم: «أشرار أهل الأرض،» وهنا يُلحظ تضمين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾. (١٠٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾. (١٠٩) وهم - كذلك - «كلاب أهل النار،» وهذا اقتباس لحديث رُوي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه يقول: «الخوارج كلاب أهل النار.» (١١٠)

وفي نهاية قصصه، يحث عتاب بن ورقاء القُصَّاص والشعراء على التقدم وإثارة حماس الجنود وحضهم على القتال. ولكن عندما لم يجد جوابا على ندائه، أحس مبكرا بالهزيمة وعبر عنها بقوله: «كأني بكم فررتم عن عتاب بن ورقاء وتركتموه.» وفي هذه الخاتمة يبين عتاب بن ورقاء أهمية دور القُصَّاص، كونهم المحركين والملهبين لمعنويات الجنود، وعندما فُقد دورهم في هذه المعركة كانت الهزيمة ومقتل عتاب بن ورقاء. (١١١)

تأييد القُصَّاص لسياسة بني أمية ومعارضتهم للخارجين عليها

لقد دعم بعض القُصَّاص الإجراءات السياسية التي اتخذها الأمويون. فأيدوا إعطاء البيعة للأبناء، وحاولوا إقناع المعارضين بهذه السياسة. كما قبلوا بدولة بني أمية، وعارضوا الخارجين والثائرين عليها.

---

(١٠٧) طبق الخوارج مبدأ الاستعراض، وهو قتل مخالفيهم نساءهم وأطفالهم؛ انظر: محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، *الملل والنحل*، تحقيق محمد سيد كيلاني (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٠م)، ١: ١٢١.

(١٠٨) سورة الأنفال، الآيتان ٢٢ و ٥٥؛ وانظر تفسيرهما عند: الطبري، *جامع*، ٩: ٢١١-٢١٢؛ ١٠: ٢٥.

(١٠٩) سورة البينة، الآية ٦؛ وانظر تفسيرها عند: الطبري، *جامع*، ٣٠: ٢٦٤.

(١١٠) انظر: محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، *سُنن ابن ماجه*، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.)، ١: ٦١.

(١١١) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢٦٥؛ ابن الاثير، *الكامل*، ٤: ٤٢٣-٤٢٤.

أما عن تأييدهم لإعطاء البيعة بالخلافة للأبناء، فقد كان للقاص سليم بن عتر التجيبي[١١٢] (ت ٧٥هـ/ ٦٩٤م) دور كبير في ذلك، فقد أيد مبايعة يزيد بالخلافة بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان.

وسليم بن عتر، هو أول من قص بمصر سنة ٣٩هـ/ ٦٥٩م.[١١٣] ولما بويع معاوية بالخلافة سنة ٤١هـ/ ٦٦١م، جمع لسليم القضاء بالإضافة إلى القصص.[١١٤] فكان سليم قاضي مصر وقاصها ومذكرها.

ويظهر دور سليم، كقاص وواعظ، في محاولته إقناع المعارضين بمصر لبيعة يزيد، بعد توليه الخلافة. ومن هؤلاء المعارضين عبدالله بن عمرو بن العاص،[١١٥] الذي كان كارها لإعطاء البيعة للخليفة يزيد بن معاوية.[١١٦]

ولا تشير المصادر المتاحة إلى فحوى ذلك الوعظ والتذكير الذي قاله سليم بن عتر لعبدالله بن عمرو، ولكن يُفهم من رد عبدالله بن عمرو، بأن سليما بتوليه القضاء إضافة إلى القصص، أصبح موالياً للدولة الأموية ومنفذا لرغبتها السياسية حتى وإن كانت خاطئة. فقد قال عبدالله لسليم: « وأما أنت ياسليم بن عتر، فكنت قاصا، فكان معك ملكان يُفتيانك ويُذكرانك، ثم صرت قاضيا فمعك شيطانان يُزيغانك عن الحق ويُفتنانك. »[١١٧]

كما قوبل سليم بن عتر - أيضا - بمعارضة من بعض صحابة الرسول صَلى الله عليه

---

(١١٢) انظر ترجمته عند: محمد بن يوسف الكندي، *الولاة وكتابُ القضاة*، تحقيق رفن كست (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د. ت.)، ٣٠٣-٣٠٤، ٣٠٧-٣١١؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٤٠٩-٤١١.

(١١٣) الكندي، *الولاة*، ٣٠٣؛ المقريزي، *الخطط*، ٢: ٢٥٣.

(١١٤) الكندي، *الولاة*، ٣٠٣؛ المقريزي، *الخطط*، ٢: ٢٥٣-٢٥٤؛ جودة، *القصص*، ١١٧.

(١١٥) انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ٢٦١-٢٦٨؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ١٦١-١٦٧.

(١١٦) محمد بن خلف بن حيان وكيع، *أخبار القضاة* (بيروت: عالم الكتب، د. ت.)، ٣: ٢٢٤، الكندي، *الولاة*، ٣١٠؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٤١٠.

(١١٧) الكندي، *الولاة*، ٣١١. وانظر أيضا: وكيع، *أخبار*، ٣: ٢٢٤؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٤١٠.

وسلم عندما كان يقص في مصر. فقد قال له صلة بن الحارث الغفاري: [١١٨] «ماتركنا عهد نبينا صلى الله عليه وسلم ولا قطعنا أرحامنا حتى قمت أنت وأصحابك بين أظهرنا.» [١١٩]

ويُفهم من معارضة أقوال سليم بن عتر، أنه كان يوظف قصصه الديني لمصلحة الدولة الأموية ويتكلم باسمها. ولكن، يُلاحظ أن تلك السياسة الموالية لبني أمية لم تكن حال سليم بن عتر عندما كان منفردا بالقصص فقط، بل جدت عليه عندما تولى القضاء بالإضافة للقصص.

فعندما كان سليم بن عتر قاصا للجند في مصر، لقي هجوما عنيفا من الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اعتبره ممن يخذلون الدولة ويثيرون العامة ضد الحكام. فقد قال الحجاج عن سليم وهو في المسجد: «لو أجدُ هذا [سليم] خلف حائط المسجد ولي عليه سلطان لضربت عنقه، إن هذا وأصحابه يثبطون عن طاعة الولاة.» [١٢٠]

ولم يقتصر دور القُصَّاص على تأييد خلافة يزيد بن معاوية والحث على بيعته، بل شمل القبول بالدولة الأموية ومعارضة الخارجين عليها.

ويعتبر عمران بن حصين الخزاعي (ت ٥٢هـ/ ٦٧٢م)[١٢١] من القُصَّاص الذين قبلوا بسلطة الدولة الأموية القائمة. ويظهر من خلفية عمران بن حصين، أنه كان من القُصَّاص الذين اعتزلوا الحروب منذ مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وكان يلقي مواعظه على الناس في حلقته بمسجد البصرة، [١٢٢] حيث كان يثبط الناس عن القتال ويدعوهم إلى عدم المشاركة فيه. [١٢٣]

والواقع، أن موقف عمران بن حصين الممتنع عن الدخول في الصراع السياسي،

(١١٨) انظر ترجمته عند: ابن حجر، *الإصابة في تمييز الصحابة* (بيروت: دار الفكر العربي، د. ت.)، ٢: ١٩٣-١٩٤.

(١١٩) وكيع، *أخبار*، ٣: ٢٢١؛ الكندي، *الولاة*، ٣٠٣-٣٠٤؛ ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ١٢٨.

(١٢٠) الذهبي، *تاريخ (٨١-١٠٠هـ)*، ٣١٧.

(١٢١) انظر ترجمتة عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ٢٨٧-٢٩١؛ ٧: ٩-١٢.

(١٢٢) ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ٢٩١؛ ٧: ١٠-١١.

(١٢٣) انظر أقواله في اعتزال الفتنة عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ٢٨٨. وانظر أيضا: عطوان، *الفرق*، ٢٠-٢١.

الذي بدأ منذ الفتنة الأولى، وقبوله بالدولة القائمة، من الأسباب التي أكسبته رضا الدولة الأموية. ولعل موقفه هذا، بالإضافة إلى فقهه وعلمه، هو الذي دعا والي العراق زياد بن أبي سفيان أن يوليه قضاء البصرة.[١٢٤]

غير أن أشهر القُصَّاص، الرافضين للخروج على طاعة الدولة الأموية والقابلين بسلطتها، هو الحسن بن يسار البصري.[١٢٥] وهو من قُصَّاص البصرة المشهورين بالوعظ والتذكير،[١٢٦] وقد تولى قضاءها في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان.[١٢٧]

وليس أدل على موقف الحسن البصري المعارض للفتن والحروب والقابل بالدولة القائمة، إلا موقفه من حركة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي سنة ٨١هـ/ ٧٠٠م.[١٢٨] فقد كان يعارض انضمام الناس - في البصرة - إلى ابن الأشعث الكندي، وينهي عن الخروج على طاعة الحجاج بن يوسف ويأمر بالكف ويحث الناس قائلا لهم: «ياأيها الناس إنه والله ماسلط الله الحجاج عليكم إلا عقوبة فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف ولكن عليكم السكينة والتضرع.»[١٢٩]

ويُظهر هذا القصص مدى التسليم المتناهي الذي كان يتخذه الحسن البصري تجاه والي العراق، وبالتالي قبوله بالدولة الأموية. لقد كان بنزعته السلمية، المعارضة للفتن والحروب، يدعو الخارجين على الدولة الأموية إلى الصبر والدعاء على جور الحجاج بن يوسف الذي يراه عقوبة من الله سبحانه وتعالى.

والجدير بالذكر، أن موقف الحسن البصري القابل بالدولة الأموية والمعارض للتأليب والإثارة عليها، قد أثار تساؤلا عند بعض المعارضين لبني أمية والخارجين عليهم من القدرية

---

(١٢٤) وكيع، *أخبار*، ١: ٢٩١؛ ابن حجر، *تهذيب*، ٤: ٣٩٧.

(١٢٥) انظر ترجمته في الهامش السابق رقم ٢٨.

(١٢٦) ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٧٠؛ الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٥٠.

(١٢٧) ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ١٥٩.

(١٢٨) انظر حركة عبدالرحمن الأشعث عند قُصَّاص المعارضة في هذه الدراسة.

(١٢٩) ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ١٦٤.

ومنهم أول من تكلم بالقدر وهو معبد الجهني البصري ،[١٣٠] والقاص الفقيه عطاء بن يسار المدني (ت ١٠٣هـ/ ٧٢١م) .[١٣١]

يروي ابن قتيبة أن : « عطاء بن يسار [كان] قاصا ويرى القدر . . . فكان يأتي الحسن [البصري] هو ومعبد الجهني ، فيسألانه ، ويقولان : يا أبا سعيد إن هؤلاء الملوك ، يسفكون دماء المسلمين ، ويأخذون الأموال ، ويفعلون ويفعلون ، ويقولون إنما تجرى أعمالنا على قدر الله . »[١٣٢]

والحقيقة ، أن قناعة الحسن البصري المعارضة للحروب والراضية عن الدولة القائمة ، تبرز واضحة في موقفه من حركة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ،[١٣٣] الذي خرج على الدولة الأموية سنة ١٠١هـ/ ٧٢٠م .[١٣٤] فقد كان الحسن البصري يعظ الناس في البصرة ، داعيا إياهم إلى التريث والبطء عن الخروج لمساندة يزيد بن المهلب ، قائلا لهم : « أيها الناس ! الزموا رحالكم وكفوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ولا يقتل بعضكم بعضا على دنيا زائلة وطمع فيها يسير ، ليس لأهلها باق ، وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براض ، إنه لم تكن فتنة إلا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء وأهل التّيه والخيلاء ، وليسّ يسلم منها إلا المجهول الخفي والمعروف التقي . فمن كان منكم خفيا فليلزم الحقّ ، وليحبس نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكفاه والله بمعرفة الله إياه بالخير شرفا ، وكفى له بها مع الدنيا خلفا ؛ ومن كان منكم معروفا شريفا ، فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا إرادة الله بذلك ، فواها لهذا ! ماأسعده وأرشده وأعظم أجره وأهدى سبيله ! فهذا غدا - يعني

---

(١٣٠) انظر ترجمته عند : ابن كثير ، *البداية والنهاية* ، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ت .) ، ٩ : ٣٦-٣٧ .

(١٣١) انظر ترجمته عند : ابن سعد ، *الطبقات* ، ٥ : ١٧٣-١٧٤ ؛ ابن قتيبة ، *المعارف* ، ٤٥٩ ؛ الذهبي ، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)* ، ١٧١-١٧٢ .

(١٣٢) ابن قتيبة ، *المعارف* ، ٤٤١ .

(١٣٣) حول هذه الحركة انظر : العصفري ، *تاريخ* ، ٣٢٠ ، ٣٢٥-٣٢٦ ؛ الذهبي ، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)* ، ١٦٣ ، ٢٨٢-٢٨٣ .

(١٣٤) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٥٩٢ - ٥٩٣ .

يوم القيامة – القرير عينا، الكريم عند الله مآبا.» [١٣٥]

ويعبر هذا القصص عن موقف الحسن البصري الحيادي، والداعي إلى حقن دماء المسلمين. فهو يحث الناس أن يلزموا منازلهم ويتقوا الله سبحانه وتعالى، وأن لايقتل المسلم أخاه المسلم على دنيا زائلة وطمع مؤقت. وهنا، يؤيد الحسن البصري وعظه بتضمينه أحاديث للرسول صلى الله عليه وسلم تنهي عن القتال بين المسلمين والمشاركة في الفتن ولو بالقول. [١٣٦] ثم يؤكد الحسن البصري على أن الحروب والصراعات لايشارك فيها إلا المغرورون والمتكبرون. أو بمعنى أصح ذوو الطموح السياسي، ويسلم منها التقي المسالم الذي ترك مايتنافس فيه الناس من أمور السلطة. وهو صاحب الأجر العظيم ومصيره الجنة. ويُدعم الحسن البصري وعظه السابق بتضمينه حديثا للرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه: «إن الله عز وجل يحب العبد التقي الغني الخفي.» [١٣٧]

وعلى هذا الأساس، يمكن الاستنتاج أن الحسن البصري بقصصه الذي يدعو فيه الناس إلى عدم الخروج لمناصرة حركتي عبدالرحمن بن الأشعث ويزيد بن المهلب، كان يتخذ موقفا سياسيا معتدلا لصالح الدولة الأموية. وهو وإن كان صادقا في وعظه لاعتقاده بوجوب اتقاء الفتن والحروب وسفك الدماء بين المسلمين إلا أنه، من جهة أخرى، كان بموقفه هذا يخدم الدولة الأموية عن غير قصد. ولعل موقفه هذا هو الذي دعا فرقة القدرية، التي تعتقد بحرية أفعال الإنسان، أن تنسبه إلى الجبْر، أي أن الإنسان غير مخير بأفعاله. [١٣٨]

وليس غريبا، إذن، أن يواجه الحسن البصري موقفين متغايرين؛ أحدهما ضده وضد توجهاته الموالية والقابلة بالدولة والآخر معه وراضيا عنه. أما الموقف المعادي له، فكان يمثله المعارضون للدولة الأموية والخارجون عليها مع عبدالرحمن بن الأشعث،

---

(١٣٥) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٥٩٣-٥٩٤؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ١٧٢.

(١٣٦) ابن حنبل، مسند، ٥: ٢٦٤-٢٦٥، ٣٢٦؛ ابن ماجه، *سُنن*، ٢: ١٣١١-١٣١٢.

(١٣٧) انظر: ابن حنبل، مسند، ١: ٢٧٣-٢٧٤.

(١٣٨) الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٦١. ويروي ابن قتيبة أن الحسن تكلم في شيء من القدر ثم رجع عنه؛ ابن قتيبة، *المعارف*، ٤٤١.

وكذلك مع يزيد بن المهلب.[١٣٩]

أما الموقف المؤيد للحسن البصري، فقد أتى من الدولة الأموية ومن يمثلها. فقد ولّي الحسن البصري قضاء البصرة ليس فقط لنزعته السلمية المعارضة للخروج على الدولة الأموية، بل لفقهه وعلمه. كما كان الحجاج بن يوسف يقف على حلقته التي يُذكر فيها ويستمع إلى قصصه.[١٤٠]

ارتباط القُصَّاص بالدولة الأموية

كانت هناك صلة وثيقة وقوية بين القُصَّاص والدولة الأموية. وتمثل ذلك في ارتباط وظيفة القصص بالقضاء والوعظ في المساجد. أما عن علاقة القُصَّاص بالقضاء فقد كان القاص قاضيا مواليا للدولة ومدافعا عنها. وكما سبق ولُوحظ فقد كان القُصَّاص في العصر الأموي يتولون القصص والقضاء، فقد كان سليم بن عتر قاصا ثم أصبح قاضيا، وكذلك عمران بن حصين. كما تولى الحسن البصري قضاء البصرة.

ولكن هل كان القصص المسيّس والمرتبط بالقضاء يلقى القبول والرضا من جميع علماء تلك الفترة التاريخية؟ الواقع أن الأمر لم يكن - دائما - كذلك، فقد قُوبل القصص المرتبط بالدولة بامتعاض ولقي معارضة من بعض العلماء الورعين من المسلمين، كونه يخالف معتقداتهم ومفاهيمهم.

وليس هناك أكثر دلالة على رفض بعض القُصَّاص لوظيفة القضاء إلا موقف أبي

---

(١٣٩) كان سعيد بن جبير يدعو إلى الخروج على بني أمية وينتقد الحسن البصري، لأنه يثبط الناس عن الخروج ويحثهم على القعود؛ ابن سعد، *الطبقات*، ٦: ٢٦٣. وانظر دوره في حركة ابن الأشعث في هذه الدراسة. كما يروي الطبري أن مروان بن المهلب - أخا يزيد الثائر على بني أمية - كان يخطب في البصرة منتقدا الحسن البصري، وكان مما يقوله: «لقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي - ولم يُسمه - يثبط الناس، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه.»؛ انظر: الطبري، *تاريخ*، ٦: ٥٩٤.

(١٤٠) ابن عساكر، *تهذيب*، ٤: ٧٤؛ الذهبي، *تاريخ (٨١-١٠٠هـ)*، ٣٢٠.

إدريس الخولاني، [١٤١] الذي كان يقص في حلقات في مسجد دمشق في خلافة عبدالملك ابن مروان. [١٤٢] وكان كارها لوظيفة القضاء. فعندما عينه الخليفة عبدالملك على القضاء وعزله عن وظيفة القصص، عبر عن عدم رضاه بقوله: «عزلتموني عن رغبتي وتركتموني في رهبتي.» [١٤٣]

والواقع، أن كراهية أبي إدريس تولي منصب القضاء، كان عائدا لتحرجه أن يكون ممثلا للدولة الأموية يتكلم باسمها ويُفتي على أساس سياستها. أو بمعنى آخر، لم يكن طامحا أن يكون سياسيا في وعظه بعد أن كان مذكرا في قصصه.

كما كان لبعض الآباء موقفٌ كارهٌ من تولي أبنائهم لوظيفة القضاء. فحين عَلِمَ عبدالرحمن بن حجيرة الخولاني (ت ٨٣هـ/ ٧٠٢م)، [١٤٤] وهو قاضي مصر وقاصها، بأن أمير مصر عبدالعزيز بن مروان، قد وَلى ابنه القصص، عبر عن ابتهاجه بقوله: «الحمد لله ذكرَ ابني وذكَّر.» ولما ولاه القضاء عبر عن امتعاضه بقوله: «إنا لله هلك ابني وأهلك.» [١٤٥]

ولا ريب، أن الدوافع الكامنة وراء تسييس القُصَّاص وربطهم بالقضاء يعود إلى أن عصر الخلافة الأموية عموما، وعهد الخليفة عبدالملك بن مروان خصوصا، كان يموج بحركات المعارضة الخارجة على الدولة الأموية؛ كالخوارج بفرقها المتعددة، والشيعة،

---

(١٤١) هو عائذ الله بن عبدالله، فقيه وقاضي دمشق وكان عالما ثقة، وتوفي سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م؛ انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ٤٤٨؛ وكيع، *أخبار*، ٣: ٢٠٢. ابن عساكر، *تهذيب*، ٧: ٢٠٦-٢٠٨.

(١٤٢) الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٥٤٣-٥٤٤؛ الزرو، *الحياة العلمية*، ٢٥.

(١٤٣) الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٥٤٤؛ عطوان، *الفرق*، ٧٤؛ الزرو، *الحياة العلمية*، ١٥.

(١٤٤) انظر ترجمته عند: البخاري، *التاريخ*، ٥: ٢٧٦؛ الفسوي، *المعرفة*، ٢: ٥٠٨، ٥١١؛ وكيع، *أخبار*، ٣: ٢٢٥، ٢٢٩، ٣٣٥.

(١٤٥) انظر: عبدالرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم، *فتوح مصر وأخبارها*، تحقيق محمد صبيح (د.م.: مؤسسة دار التعاون للطباعة والنشر، ١٩٧٤م)، ١٥٧؛ وكيع، *أخبار*، ٣: ٢٢٩؛ الكندي، *الولاة*، ٣١٥؛ جودة، *القصص*، ١١٩.

وعبدالله بن الزبير وابن الأشعث.[١٤٦]

وقد واجهت الدولة الأموية هذه الحركات عسكريا واستطاعت القضاء عليها، ولكن كان عليها - أيضا - أن تواجهها سياسيا ودعائيا. ولم يكن مؤهلا لهذا الدور سوى القُصَّاص الموالين للدولة والمعبرين عنها ضد خصومها وأعدائها. ومن هنا، ظهر دور القُصَّاص كوعاظ سياسيين في المساجد. فاتُّخذ بعض القصص والوعظ والدعاء في المساجد وأثناء الصلوات أداة لتعزيز النظام السياسي للدولة الأموية والدعاية له منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان. حتى أن سليم بن عتر كان عندما يصلي يقرأ في الركعة الأولى بجزء من سورة البقرة وفي الثانية بسورة الصمد ويرفع يديه في القصص إذا دعا.[١٤٧]

وفي الفترة المروانية أجبرت الظروف السياسية - التي واجهها - الخليفة عبدالملك ابن مروان على الاستعانة بالقُصَّاص لنصرته والدعاء له ضد خصومه ومعارضيه. فيروي المقريزي أن الخليفة عبدالملك بن مروان «شكا إلى العلماء ما انتشر عليه من أمور رعيته وتخوّفه من كل وجه، فأشار عليه أبو حبيب الحمصي[١٤٨] القاضي بأن يستنصر عليهم برفع يديه إلى الله تعالى، فكان عبدالملك يدعو ويرفع يديه وكتب بذلك إلى القُصَّاص فكانوا يرفعون أيديهم بالغداة والعشي.»[١٤٩]

وكذلك أصبح الدعاء والقصص خلال صلاة الجمعة وسيلة لتأييد الدولة الأموية. فقد روى أحمد بن حنبل عن الخليفة عبد الملك قوله: «إنا قد جمعنا الناس على أمرين... رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة والقصص بعد الصبح والعصر.»[١٥٠]

ومن ثم، تحولت خطبة صلاة الجمعة - التي كانت في بداية الإسلام وعظا وتذكيرا - لتكون خطبة مسيسة، تخدم أغراضا سياسية في محتواها ونصوصها دعما وتأييدا للدولة الأموية. ولاريب، أن ما قاله قاصٌّ أهل مكة عطاء بن يسار (ت ١٠٣هـ/ ٧٢١م)، يُدعم

---

(١٤٦) سيشار إلى هذه الحركات وقُصَّاصها في هذه الدراسة.

(١٤٧) المقريزي، *الخطط*، ٢: ٢٥٤.

(١٤٨) انظر ترجمته وأخباره عند: وكيع، *أخبار*، ٣: ٢١٠؛ ابن عساكر، *تهذيب*، ٣: ٤٦٠.

(١٤٩) المقريزي، *الخطط*، ٢: ٢٥٤.

(١٥٠) ابن حنبل، مسند، ٥: ٣٦؛ ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١٠؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٥٠٨.

هذه الحقيقة، فعندما سُئل عن فحوى خطبة الجمعة وما يدعو به خطباء المساجد في عصره، وهل كان ذلك على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، أو خلفائه، أنكر عطاء مايدعو به الخطباء في عصره واعتبره أمرا مبتدعا، حيث قال: « لا إنما أحدث، إنما كانت الخطبة تذكيرا. »[١٥١] ويقصد عطاء بقوله هذا، أن الخطبة كانت في بداية الإسلام وعظا وتذكيرا وترهيبا وترغيبا، ولم تكن مسيسة لحركة أو دولة كما في العصر الذي يعيشه.[١٥٢]

ولا تشير المصادر المتاحة إلى نوعية القصص الذي كان يلقيه القُصَّاص الأمويون في خطبة الجمعة أو أثناء الصلوات، ولكن يبدو أن بعضه كان ينصب على المدح والثناء للأمويين والذم والانتقاص لمعارضيهم. والمرجح، أن بعض القُصَّاص قد استمروا على هذا الحال حتى خلافة عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٧-٧٢٠م) الذي اتخذ موقفا معارضا من القصص السياسي الذي يعظم الخلفاء الأمويين ويحط من أعدائهم.[١٥٣]

أما فيما يتعلق بالقصص الذي يمجد الخلفاء الأمويين، فقد وجه الخليفة عمر عماله وولاته على الأقاليم بأن يأمروا القُصَّاص أن يكون جل إطنابهم ودعائهم الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وكتب إلى كل أمير من أمراء الأجناد الكتاب التالي:

أما بعد فإن الناس ما اتبعوا كتاب الله نفعهم في دينهم ومعايشهم في الدنيا ومرجعهم إلى الله فيما بعد الموت. وأن الله أمر في كتابه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾.[١٥٤] صلوات الله على محمد رسول الله والسلام عليه ورحمة الله وبركاته. ثم قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾.[١٥٥] فقد جمع الله تبارك وتعالى في كتابه أن أمر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين والمؤمنات، وأن رجالا من القُصَّاص قد أحدثوا صلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل مايصلون على النبي وعلى المؤمنين، فإذا أتاك كتابي هذا فمُرْ قُصَّاصكم

---

(١٥١) انظر: محمد بن إدريس الشافعي، *كتاب الأم*، تحقيق محمد زهري النجار (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ١: ٢٠٣؛ جودة، *القصص*، ١٢٣.

(١٥٢) انظر: جوده، *القصص*، ١٢٣.

(١٥٣) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٢٩٣؛ اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٣٠٥؛ المسعودي، *مروج*، ٣: ١٩٣.

(١٥٤) سورة الأحزاب، الآية٥٦.

(١٥٥) سورة محمد، الآية ١٩.

فليصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم وليكن فيه إطناب دعائهم وصلاتهم ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات وليستنصروا الله، ولتكن مسألتهم عامة للمسلمين، وليدَعوا ماسوى ذلك، فنسأل الله التوفيق في الأمور كلها، والرشاد والصواب والهدى فيما يحب ويرضى، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم والسلام عليك. (١٥٦)

أما عن القصص السياسي الموجه تجاه الناقمين على الدولة الأموية، وخصوصا أعوان علي بن أبي طالب ومؤيديه، فقد اتخذ الخليفة عمر بن عبدالعزيز موقفا مغايرا منه. حيث منع الولاة والقُصَّاص من ذكر علي بن أبي طالب بسوء على المنابر. (١٥٧) وأمرهم أن يقرأوا عوضا عن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ الآية. (١٥٨)

غير أن تلك السياسة التوفيقية القائمة على التهدئة والمصالحة، بمعارضتها للقصص السياسي، لم تستمر طويلا بعد خلافة عمر بن عبدالعزيز القصيرة. ومن ثم عاد القصص السياسي يتخذ مكانته السابقة. فيروي ابن عساكر أن أحد القُصَّاص كان يعظ الناس يوم الجمعة في مسجد دمشق، فيحذرهم ويرغبهم ثم ينهي قصصه بذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذلك في خلافة هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٤-٧٤٣م). (١٥٩)

والمؤكد، أن عودة القصص السياسي المنصب على التعرض لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت بتشجيع من الأمويين وذلك لحاجتهم لمؤيدين يقفون معهم خطابيا ويؤلبون الناس ضد حركات المعارضة، وخصوصا حركة الشيعة التي تفاقمت في عهد

(١٥٦) ابن عبدالحكم، *سيرة عمر بن عبدالعزيز*، تحقيق أحمد عبيد، ط٦ (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٤م)، ٨٠-٨١. وانظر أيضا: ابن الجوزي، *سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز الخليفة الزاهد*، تحقيق نعيم زرزور، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٤م)، ٢٧٣؛ الأصبهاني، *حلية*، ٥: ٣٣٨.

(١٥٧) ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٣٩٣؛ اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٣٠٥؛ المسعودي، مروج، ٣: ١٩٣.

(١٥٨) سورة النحل، الآية ٩٠؛ وانظر: المسعودي، مروج، ٣: ١٩٣-١٩٤؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٤٢-٤٣.

(١٥٩) ابن عساكر، *تهذيب*، ٣: ٤١٠.

الخليفة هشام بن عبدالملك وكان يمثلها زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.[١٦٠] ناهيك عن الدعوة العباسية التي كانت قد بدأت في الظهور وبث الدعاة والمناصرين لآل البيت قبل ذلك بكثير.[١٦١]

وظائف أخرى للقصَّاص الأمويين

اهتم الخلفاء الأمويون بالقُصَّاص وقدروا دورهم في تدعيم سلطتهم والدعاية لها. ولذلك فقد تعددت وظائف القُصَّاص وأنشطتهم. فكان لبعض الخلفاء قُصَّاص خاصون بهم ومعينون رسميا لديهم. حيث كان لمعاوية بن أبي سفيان قصّاصٌ ملازمون له يستمع إلى قصصهم يوميا.[١٦٢] وكان أبو إدريس الخولاني يتولى القصص - بالإضافة للقضاء بدمشق - للخليفة معاوية بن أبي سفيان وكذلك للخليفة عبدالملك بن مروان.[١٦٣] وكان ابن أبي عُيينة يقص عند الخليفة سليمان بن عبدالملك.[١٦٤] ومحمد بن قيس المدني هو القاص للخليفة عمر بن عبدالعزيز.[١٦٥]

كما كان لجماعة المسلمين المنضوية تحت لواء السلطة الأموية قُصَّاص معينون رسميا من قبلها. وكانوا يعبرون عن الدولة الأموية وتوجهاتها أمام غالبية جماعة المسلمين القابلة بسلطتها في الأقاليم والأمصار الإسلامية.

---

(١٦٠) انظر ترجمته عند: البخاري، *التاريخ*، ٣: ٤٠٣؛ ابن عساكر، *تهذيب*، ٦: ١٧-٢٧.

(١٦١) بدأت الدعوة العباسية في الظهور بدور السر والكتمان في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٧-٧٢٠م)، حيث يذكر ابن الأثير أن بداية الدعوة العباسية كانت سنة ١٠٠هـ/ ٧١٨م؛ انظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٥٣-٥٤.

(١٦٢) المسعودي، *مروج*، ٣: ٣٩.

(١٦٣) الفسوي، *المعرفة*، ٢: ٣٢٠؛ العصفري، *تاريخ*، ٢٩٦.

(١٦٤) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٥٤٧. وليس هناك ترجمة لابن أبي عُيينة القاص في المصادر المتاحة، ولعله من ولد أبي عُيينة بن المهلب بن أبي صفرة؛ انظر: علي بن أحمد بن سعد بن حزم، جمهرة *أنساب العرب*، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م)، ٣٦٨-٣٦٩.

(١٦٥) البخاري، *التاريخ*، ١: ٢١٢؛ وانظر ترجمة محمد بن قيس المدني عند: البخاري، *التاريخ*، ١: ٢١٢-٢١٣؛ الذهبي، *تاريخ (١٢١-١٤٠هـ)*، ٢٢٥-٢٢٦.

ففي الشام وعاصمتها دمشق، كان لمعاوية بن أبي سفيان عند ولايته على الشام قاص للجماعة. [١٦٦] ثم أصبح قاص أهل الشام وقاضيهم أبا إدريس الخولاني. [١٦٧]

وفي الحجاز، كان مسلم بن جندب الهذلي (ت ١٠٦هـ/ ٧٢٤م) قاص أهل المدينة وقارئهم. [١٦٨] ويؤكد ابن شبه دور قاص الجماعة في المدينة، حيث يروي بأن قاص الجماعة عندما كان يقص، كان الناس يجتمعون حلقات حول القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، [١٦٩] ولكن قاص الجماعة لايشاركهم ولا يدخل معهم في قصصهم. [١٧٠]

وكان عبدالله بن كثير الداري قاص الجماعة في مكة. [١٧١] ويصف الفاكهي وظيفة قاص الجماعة بمكة بقولـه: «وكان القاص يقوم في المسجد الحرام بعد صلاة الصبح، فيذكر الله تعالى ويدعو ويؤمن الناس، وذلك خلف المقام بعد تسليم الإمام.» [١٧٢]

وفي مصر، كان سليم بن عتر قاص الجماعة منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان. [١٧٣]

---

(١٦٦) الطبري، *تاريخ*، ٤: ٣٢٨. ولعله فضالة بن عبيد الأنصاري (ت٥٣هـ/ ٦٧٣م) الذي تولى القضاء لمعاوية، وبعد وفاته ولى معاوية القضاء أبا إدريس الخولاني، انظر: الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٣٠؛ ابن الأثير، *أسد*، ٤: ٦٣-٦٤.

(١٦٧) الفسوي، *المعرفة*، ٢: ٣٢٠.

(١٦٨) ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١٤؛ الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٢٥٦. وانظر ترجمة مسلم بن جُندب عند: ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١٤؛ البخاري، *التاريخ*، ٧: ٢٥٨.

(١٦٩) هو فقيه ومفتي من أعلام أهل المدينة المنورة توفي سنة ١٠٨هـ/ ٧٢٦م؛ انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٥، ١٨٧-١٩٤؛ الأصبهاني، حلية، ٢: ١٨٣؛ الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٢١٧-٢٢٣.

(١٧٠) ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١٤. وانظر ترجمة عبد الله بن كثير عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٤٨٤؛ البخاري، *التاريخ*، ٥: ١٨١.

(١٧١) أبو عبدالله محمد بن إسحاق الفاكهي، *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه*، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، ط٢ (بيروت: دار خضر للطباعة والنشر، ١٩٩٤م)، ٢: ٣٨٩؛ الذهبي؛ *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٤٠٤.

(١٧٢) ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ١٦١؛ الفاكهي، *أخبار*، ٢: ٣٨٨.

(١٧٣) المقريزي، *الخطط*، ٢: ٢٥٤.

وكان عبدالرحمن بن حجيرة الخولاني قاص الجماعة في عصر الخليفة عبدالملك بن مروان.[١٧٤] كما جُمِعَ القضاء والقصص في مصر لتوبة بن نمر الحضرمي سنة ١١٥هـ/ ٧٣٣م.[١٧٥] ثم تولى بعده - الوظيفة نفسها - خَيْر بن نُعيَم الحضرمي حتى سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥م.[١٧٦]

واختصت مدينة الإسكندرية بقاص، وهو الجَلاَّح أبو كثير الرومي (ت ١٢٠هـ/ ٧٣٨م)، وقد عينه الخليفة عمر بن عبدالعزيز.[١٧٧]

والجدير بالملاحظة هنا، أن القصَّاص المعينين على الأقاليم والمدن الإسلامية كانوا يتقاضون رواتب ثابتة، شهرية أو سنوية، مقابل قصصهم. وكان ذلك جزءا من مخصصاتهم، فالقاص كان يمثل وظيفة رسمية تتولى مصاريفها الدولة الأموية وتنفق عليها.

فعندما جمع الخليفة عبدالملك بن مروان القضاء والقصص وبيت المال لعبد الرحمن ابن حجيرة الخولاني في مصر، كان راتبه في العام ألف دينار، ونصيبه من القصص مائتي دينار.[١٧٨]

ولما عين الخليفة عمر بن عبدالعزيز مسلم بن جندب الهذلي قاصا لأهل المدينة، أجرى له راتبا شهريا، وهو ديناران في الشهر.[١٧٩] كما أقر الخليفة هشام بن عبدالملك لقاص أهل المدينة راتبا، وهو ستة دنانير في السنة.[١٨٠]

---

(١٧٤) الفسوي، *المعرفة*، ٢: ٥٠٨، ٥١١؛ الذهبي، *تاريخ (٨١-١٠٠هـ)*، ١٢٦؛ المقريزي، *الخطط*، ٢: ٢٥٤-٢٥٥؛ جودة، *القصص*، ١٠٨.

(١٧٥) الكندي، *الولاة*، ٣٤٢. وانظر ترجمة توبة بن نمر عند: *الكندي*، *الولاة*، ٣٤١-٣٤٧؛ وكيع، *أخبار*، ٣: ٢٣٠؛ الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٣٣١.

(١٧٦) الكندي، *الولاة*، ٣٥٢. وانظر ترجمة خير بن نعيم عند: ابن حجر، *تهذيب*، ٢: ١٠٧.

(١٧٧) الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٣٣٩. وانظر ترجمة الجلاح عند: البخاري، *التاريخ*، ٢: ٢٥٤.

(١٧٨) وكيع، *أخبار*، ٣: ٢٢٥؛ الذهبي، *تاريخ (٨١-١٠٠هـ)*، ١٢٦.

(١٧٩) الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٢٥٧. وانظر أيضا: ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١٥.

(١٨٠) ابن شبه، *تاريخ*، ١: ١٥.

ومما سبق، يتضح أن القُصَّاص الموالين لبني أمية أو المعينين رسميا، كانوا يعبرون في قصصهم عن سياسة هذه الدولة سواء في السلم أو في الحرب، ويدعمون ويوالون الدولة الأموية. فهم - إن صح التعبير - المتحدثون الرسميون باسم الدولة الأموية والممثلون لسياستها تجاه قُصَّاص المعارضين والمنضوين تحت الحركات الخارجة عليها، والذين كان لهم دور في الصراع السياسي السائد في العصر الأموي.

قُصَّاص الحركات المعارضة

واجهت الدولة الأموية منذ قيامها العديد من الحركات السياسية المعارضة والمناوئة لحكمها، وأهمها الخوارج، والشيعة، وابن الزبير، وابن الأشعث، والحارث بن سريج. وقد لعب القُصَّاص دورا في مساندة هذه الحركات والتعبير عن أفكارها وتأييد الطرح السياسي والديني الذي كانت تنادي به خلال صراعهم مع الأمويين.

قُصَّاص الخوارج

كانت حركة الخوارج الصُفْرِيَّة من أشهر حركات الخوارج التي برز فيها بعض القُصَّاص. وقد ظهرت هذه الحركة على مسرح الأحداث في دارا والموصل وهما من بلاد الجزيرة الفراتية،[١٨١] وذلك في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان سنة ٧٦هـ/ ٦٩٥م.[١٨٢] وكانت بقيادة صالح بن مَسَّرح التميمي.[١٨٣]

---

(١٨١) دارا: بلدة من بلاد الجزيرة الفراتية بها بساتين ومياه جارية؛ ياقوت، معجم، ٢: ٤٨٠. والموصل: مدينة كثيرة الخيرات ومحط للركبان ومن أشهر مدن الجزيرة الفراتية. ياقوت، معجم، ٥: ٢٣٣-٢٢٥. وانظر الهامش السابق رقم (٥٨).

(١٨٢) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢١٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٣٩٣؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٣٢٧.

(١٨٣) انظر ترجمته وأخباره عند: ابن قتيبة، *المعارف*، ٤١٠؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢١٦-٢٢٣؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٣٢٧. وحول حركته ومعتقداتها انظر: علي بن إسماعيل الأشعري، *مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٢ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩م)، ١: ١٩٦؛ البغدادي، *الفرق*، ٧٠-٧٢.

وكان صالح بن مسرح قاصا وعابدا وواعظا مشهورا يعبئ أصحابه وأفراد فرقته معنويا وروحيا بالقصص، حيث كان يذكرهم ويعظهم. يروي الطبري أن صالح كان: «رجلا ناسكا... صاحب عبادة، وأنه كان بدارا وأرض الموصل والجزيرة له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم.»(١٨٤)

ويُعتبر قصص صالح بن مسرح من القصص الذي يُعبر عن مبادئ وميول فرقته السياسية الدينية، ناهيك عن احتوائه على نظرة الخوارج عامة، للأمويين وغيرهم من المسلمين في تلك الفترة التاريخية. وتظهر هذه الحقيقة واضحة عند استعراض القصص التالي - والذي أورد أغلبه لأهميته - والذي كان يلقيه صالح بن مسرح على أصحابه وفيه يقول:

﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَات وَالنُّورَ ثُمَّ الذينَ كَفَرُوا بربِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴿١﴾ ﴾.(١٨٥) اللهم إنا لانعدل بك، ولا نحفد إلا إليك، ولا نعبد إلا إياك. ونشهد أن محمدا عبدك الذي اصطفيته، ورسولك الذي اخترته وارتضيته لتبليغ رسالاتك، ونصيحة عبادك، ونشهد أنه قد بلغ الرسالة، ونصح للأمة، ودعا إلى الحق، وقام بالقسط، ونصر الدين، وجاهد المشركين، حتى توفاه الله، صلى الله عليه وسلم.

أوصيكم بتقوى الله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وكثرة ذكر الموت، وفراق الفاسقين، وحب المؤمنين، فإن الزهادة في الدنيا تُرغب العبد فيما عند الله، وتفرغ بدنه لطاعة الله، وإن كثرة ذكر الموت يخيف العبد من ربه حتى يجأر إليه، ويستكين له، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين، قال الله في كتابه: ﴿ **وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَد مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** ﴿٨٤﴾ ﴾.(١٨٦)

وإن حب المؤمنين للسبب الذي تنال به كرامة الله ورحمته وجنته، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين. ألا إن من نعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم، *فعلمهم الكتاب والحكمة وزكاهم وطهرهم*،(١٨٧) وفقههم في دينهم، *وكان بالمؤمنين رؤوفا*

---

(١٨٤) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢١٦. وانظر أيضا: ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٣٩٣.

(١٨٥) سورة الأنعام، الآية ١.

(١٨٦) سورة التوبة، الآية ٨٤.

(١٨٧) إعادة صياغة للآية القرآنية ١٦٤ من سورة آل عمران. وانظر أيضًا: سورة البقرة، الآيتين ١٢٩، ١٥١.

رحيـــما ، [١٨٨] حتى قبضه الله ، صلوات الله عليه ، ثم وُلي الأمر من بعده التقي الصديق على الرضا من المسلمين فاقتدى بهديه واستن بسنته ، حتى لحق بالله - رحمه الله - واستخلف عمر ، فولاه الله أمر هذه الرعية ، فعمل بكتاب الله ، وأحيا سُنة رسول الله ، ولم يحنق في الحق على جرته ، ولم يخف في الله لومة لائم ، حتى لحق به رحمة الله عليـه . [١٨٩]

وتابع صالح بن مسرح سرد قصصه على أصحابه منتقدا سياسة الخليفتين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما وذاكرا إياهما بأشياء غير حميدة . واستمر في قصصه قائلا :

فتيسروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة ، وأئمة الضلال الظلمة وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، واللحاق بإخواننا المؤمنين *الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، وأنفقوا أموالهم التماس رضوان الله في الباقية* . [١٩٠] ولا تجزعوا من القتل في الله ، فإن القتل أيسر من الموت ، والموت نازلٌ بكم غير ماترجم الظنون ، فمفرق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم ، وحلائلكم ودنياكم ، وإن اشتد لذلك كرهكم وجزعكم .

ألا فبيعوا الله أنفسكم طائعين وأموالكم تدخلوا الجنة آمنين ، وتعانقوا الحور العين ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين ، *الذين يهدون بالحق وبه يعدلون* . [١٩١] [١٩٢]

ويدل هذا القصص دلالة واضحة ، ليس فقط على رأي صالح بن مسرح وفرقته الصُفَّرية ، بل أيضا على أفكار واعتقاد الخوارج عامة في نظرتهم للمسلمين في تلك الفترة التاريخية . وهي على كل حال ، نظرة مغايرة لاعتقاد عامة المسلمين سواء في الخلفاء الراشدين ، كعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، أو فيمن أطلق عليهم صالح « الأحزاب المتحزبة وأئمة الضلال الظلمة ، » قاصدا - على الأرجح ومن سياق

---

(١٨٨) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ .

(١٨٩) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٢١٦-٢١٨ .

(١٩٠) تضمين للآيات القرآنية التالية : سورة البقرة ، الآية ٨٦ ؛ سورة آل عمران ، الآية ١٤٨ ؛ سورة التوبة ، الآية ١١١ .

(١٩١) اقتباس من سورة الأعراف ، الآية ١٨١ .

(١٩٢) الطبري ، *تاريخ* ، ٦ : ٢١٦-٢١٨ .

قصصه - شيعة علي بن أبي طالب وخلفاء بني أمية.

وبإمعان النظر - من جديد - في فحوى هذا القصص الذي كان يلقيه صالح بن مسرح على أصحابه، نجد أنه يُعبر عن أفكار جديرة بالتحليل والدراسة، خصوصا إذا ما أخذ بعين الاعتبار ماهية هذه الأفكار وأهميتها والظروف التي استدعتها. وهي التالي:

١- تأكيده على أن الخوارج موحدون بالله - سبحانه وتعالى - يلجأون إليه ولا يعبدون سواه. وهنا يدعم صالح قصصه بالاستشهاد بالقرآن الكريم، وذلك عندما يقتبس آية قرآنية كاملة مبتدئا بها قصصه وهي: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الذينَ كَفَرُوا بربِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴿١﴾ ﴾. [١٩٣] والمرجح، أن اقتباس هذه الآية كبداية لقصص صالح بن مسرح، يهدف إلى إيجاد نوع من القياس المبني على المقارنة بين الخوارج وأعدائهم من الأمويين وغيرهم. فإذا كان الخوارج يعبدون الله سبحانه وتعالى ولا يجعلون له ندا، فهم - في نظر صالح - بعكس غيرهم من المسلمين.

والجدير بالملاحظة هنا، أن الطبري في تفسيره قد ذكر أن أحد الخوارج - ولم يسمه - قد فسر الآية السابقة بخلاف مضمونها الذي يعني أهل الكتاب. [١٩٤] ومن هنا، فصالح يخرج الآية من مضمونها ليطبقها على المسلمين.

٢-تدعيمه لخروجه وفرقته على عامة المسلمين، وذلك باقتباسه الآية التالية: ﴿ **وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** ﴿٨٤﴾ ﴾. [١٩٥] وهنا - أيضا - يخرج صالح بن مسرح الآية من مضمونها ليطبقه على عامة المسلمين، فالآية نزلت في رأس المنافقين بالمدينة عبدالله بن أبي سلول، وذلك عندما استغفر له الرسول صلى الله عليه وسلم في صلاته، فنهاه الله سبحانه وتعالى عن الاستغفار له. [١٩٦] ويبدو أن اقتباس هذه الآية فيه تبرير وتسويغ لخروج صالح بن مسرح

---

(١٩٣) سورة الأنعام، الآية ١.

(١٩٤) الطبري، جامع، ٧: ١٤٤-١٤٥. وانظر أيضًا: الزمخشري، *الكشاف*، ٢: ٣-٤.

(١٩٥) سورة التوبة، الآية ٨٤.

(١٩٦) الطبري، جامع، ١٠: ٢٠٤-٢٠٦.

ومجموعته على مسلمي عصره، ومفارقتهم ومحاربتهم، وخصوصا الأمويين. وذلك لأنه يرى «فراق الفاسقين حق على المؤمنين» وهم الخوارج في رأيه. ومما يُدعم ما قاله صالح بن مسرح، أن من مبادئ الخوارج الصُفْرية وعقائدهم، الخروج من دار المسلمين واعتبارها دار كفر.(١٩٧)

٣-تمجيده للخوارج، وذلك بإضفاء صفات عليهم وردت في القرآن الكريم، فعندما يقول عن الخوارج بأنهم «الذين باعوا الدنيا بالآخرة وأنفقوا أموالهم» فهو يضمن - في كلامه هذا - الآيات التالية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴿٨٦﴾﴾،(١٩٨) ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة﴾.(١٩٩) ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴿١١١﴾﴾،(٢٠٠)

ولايخلو هذا التضمين للآيات السابقة من مغزى، ففيه إيحاء للخوارج بأنهم مثل الصحابة الأوائل في صفاتهم وأعمالهم. كما أن في ذلك التضمين إشارة إلى لقب أطلقه الخوارج على أنفسهم وهو لقب «الشراة.» حتى أن هذا اللقب أصبح صفة لهم واسما من أسمائهم المحببة إليهم. وهو يعني أن الخوارج شروا أنفسهم في طاعة الله سبحانه وتعالى وباعوها بالجنة.(٢٠١)

ثم، ينهي صالح بن مسرح قصصه بقوله: «جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون». وهنا، يُلاحظ تضمين قرآني لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.(٢٠٢)

---

(١٩٧) انظر: الأشعري، مقالات، ١: ١٨٢؛ البغدادي، *الفرق*، ٥٤-٥٦.

(١٩٨) سورة البقرة، الآية ٨٦.

(١٩٩) سورة آل عمران، الآية ١٤٨.

(٢٠٠) سورة التوبة، الآية ١١١.

(٢٠١) الأشعري، *مقالات*، ١: ٢٠٦-٢٠٧. وانظر تفسير الآية ٨٦ من سورة البقرة عند: الطبري، *جامع*، ٦: ٤٠٢.

(٢٠٢) سورة الأعراف، الآية ١٨١. وانظر أيضا: سورة الأعراف، الآية ١٥٩. وانظر: الطبري، *جامع*، ٦: ٨٧.

وهكذا، كان اقتباس وتضمين القرآن في قصص صالح بن مسرح له أهمية دينية وسياسية. فهو يُظهر جليا مايريد صالح أن يوحيه لمستمعيه من الخوارج الصُفَّرية. وذلك حين يضفي عليهم صفات المؤمنين الأوائل الذين عاصروا الرسول صلى الله عليه وسلم. فهم لايشركون بالله سبحانه وتعالى أحدا، ويفارقون الفاسقين، ويبيعون الحياة الدنيا بشراء الآخرة، ويعملون بالحق ويسيرون عليه.

وعلى النقيض من ذلك، يوحي صالح بن مسرح لأصحابه بأن الأمويين وغيرهم من أصحاب الحركات السياسية، هم الخارجون على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأوائل ولاتنطبق عليهم - بالقياس - صفات صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هم - كما يؤكد صالح - « أحزاب متحزبة وأئمة الظلال الظلمة» الذين لابد من جهادهم ومحاربتهم.

ومن هذا المنطلق الذي عبر عنه صالح بن مسرح في قصصه، قام هو وأصحابه بحركتهم الخارجة على الدولة الأموية في الموصل، ولكن عامل الدولة الأموية الحجاج بن يوسف الثقفي قام بإرسال جيش تمكن من هزيمة صالح بن مسرح وقتله سنة ٧٦هـ/ ٦٩٥م.[٢٠٣]

وبعد مقتل صالح بن مسرح تولى قيادة هذه الحركة شبيب بن يزيد الشيباني. وكان لهذا القائد الجديد صولات وجولات تفوَّق فيها على جيوش الحجاج بن يوسف، وهزم العديد من قواده، وأرهب أهالي العراق حتى وصل به الأمر إلى الاستيلاء على الكوفة سنة ٧٦هـ/ ٦٩٥م.[٢٠٤]

وخلال المعارك التي كانت تدور بين شبيب وجيوش الأمويين، كان شبيب يقص على أصحابه لرفع معنوياتهم وإثارة روحهم القتالية. ففي إحدى المعارك التي دارت بين شبيب وعتاب بن ورقاء قائد الحجاج بن يوسف، كان شبيب يعظ جنده الأقل عددا وعدة من جيش عتاب. فعندما كان شبيب بالمدائن ومعه ألف رجل من أصحابه، قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: « يامعشر المسلمين، إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان

(٢٠٣) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢١٩-٢٢٣؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٣٩٥-٣٩٦.

(٢٠٤) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢٤٠-٢٤١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٤٠٦-٤٠٧.

وأكثر من ذلك قليلا، وأنقص منه قليلا، فأنتم اليوم مئون ومئون، ألا إني مُصْلٍ الظهر ثم سائر بكم.» (٢٠٥)

وهنا، يعتبر شبيب أصحابه كالمسلمين الأوائل في قوة إيمانهم وصبرهم وجهادهم بالرغم من قلتهم. وهو في كلامه هذا يضمن القرآن الكريم. ولعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾. (٢٠٦) والمرجح، أن تضمين شبيب لأجزاء من الآيتين السابقتين فيه مقارنة بين المسلمين صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين أصحابه. وهي مقارنة مبنية على القياس يهدف بها شبيب تعظيم قدر أصحابه وأنهم على الحق ورفع روحهم المعنوية وحثهم على القتال.

لقد كان شبيب يجد في القصص والتذكير وسيلة للتحريض والحث على القتال، إلا أن مجموعة من أنصاره تخاذلوا وتخلوا عنه. يروي الطبري عن أحد المشاركين في جيشه قوله: «فخرج في أصحابه [من المدائن] فأخذوا يتخلفون ويتأخرون فلما جاوزنا ساباط (٢٠٧) ونزلنا معه، قصَّ علينا وذكرنا بأيام الله، وزهدنا في الدنيا، ورغبنا في الآخرة ساعة طويلة،.» (٢٠٨)

وبالرغم من تفاني شبيب واستبساله في محاربة جيوش الأمويين، واندفاعه بالقلة التي معه، وبثه القصص في أصحابه، إلا أن ذلك لم يحل دون هزيمته على يد الحجاج بن يوسف سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م. (٢٠٩)

وقبل إنهاء قصص الخوارج، لابد من الإشارة بأنهم، وإن كانوا يعبرون في قصصهم

---

(٢٠٥) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢٦٢.

(٢٠٦) سورة الأنفال، الآيتان ٦٥ - ٦٦.

(٢٠٧) ساباط: موضع معروف بالمدائن في العراق؛ ياقوت، معجم، ٣: ١٦٦.

(٢٠٨) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢٦٢.

(٢٠٩) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٢٧٩-٢٨٢؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٤٣١-٤٣٢.

عن أفكارهم ومبادئهم المتضمنة نظرتهم للأوضاع السياسية السائدة في العصر الأموي، إلا أن قصصهم قُوبل بمعارضة من بعض علماء المسلمين، ومن هؤلاء محمد بن سيرين[٢١٠] الذي اعتبر الخوارج هم أول من ابتدع القصص. فعندما سُئِلَ عن القصص قال: «بدعة، إن أول ما أحدث الحرورية[٢١١] القصص.»[٢١٢] كما يُروَى عنه قولـــه: «إن أول من قصَّ الحرورية أو قال: الخوارج.»[٢١٣]

والواقع، أن نسبة ابتداع القصص للخوارج وقصره عليهم راجع لقصصهم السياسي الديني المعادي للمسلمين عامة، والأمويين خاصة الذين كانوا يمثلون جماعة المسلمين. هذا بالإضافة إلى موقف الخوارج المتمثل في محاربة المسلمين وتكفيرهم في تلك الفترة التاريخية.

كما وأن انتشار الكذب والاختلاق في الحديث النبوي من قبل القُصَّاص وأصحاب الفرق خلال فترة الصراع السياسي في العصر الأموي، جعل العلماء يطعنون في أصل القُصَّاص والقصص وينسبونهم إلى الخوارج[٢١٤] مع أن القصص كان متداولا بين الحركات السياسية في العصر الأموي ولم تخل حركة سياسية من قُصَّاصها الموالين والمعبرين عنها.

قُصَّـاص الشيعة

لعب القُصَّاص الشيعة دورا كبيرا في مناصرة آل البيت وتأييدهم، وكان لهم تميزٌ

---

(٢١٠) انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ١٩٣-٢٠٦؛ الذهبي، *تاريخ (١٠١-١٢٠هـ)*، ٢٣٩-٢٤٩.

(٢١١) الحرورية: لقب يطلق على الخوارج. وهو نسبة إلى حروراء وهي قرية بظاهر الكوفة نزل بها الخوارج الذين خالفوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: ياقوت، معجم، ٢: ٢٤٥.

(٢١٢) ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ١٢٧؛ السيوطي، *القُصَّاص*، ٢٧١. كما يروي السيوطي أيضا رواية أخرى منسوبة لابن سيرين يقول فيها: «القصص أمر محدث، أحدثه هذا الخلق من الخوارج.» السيوطي، *القُصَّاص*، ٢٤٧.

(٢١٣) ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٢٣.

(٢١٤) متز، *الحضارة*، ٢: ١٤٩.

في حركة التوابين التي ظهرت بعد مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب والعديد من أفراد أسرته بكربلاء سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م.

وتنسب هذه الحركة إلى سليمان بن صرد الخزاعي [٢١٥] وأصحابه الذين تسموا بإسم التوابين، [٢١٦] وذلك لأنهم تابوا إلى الله سبحانه وتعالى من خذلانهم للحسين بن علي وعدم مناصرتهم له بعد دعوتهم له للقدوم إلى الكوفة. [٢١٧]

وقد تحرك الشيعة التوابون يدفعهم مبدأ الثأر من قتلة الحسين بن علي والتضحية بالنفس تكفيرا عن تهاونهم وخذلانهم للحسين بن علي، وذلك في خلافة مروان بن الحكم (٦٤-٦٥هـ/ ٦٨٤-٦٨٥م).

واستطاع التوابون هزيمة أحد الجيوش الأموية التي أرسلت لإخضاع حركتهم، ولكن عامل بني أمية على الجزيرة الفراتية عبيد الله بن زياد، قام بإرسال إمدادات ومساعدات عسكرية للجيش الأموي استطاعت القضاء على حركة التوابين في عين الوردة [٢١٨] سنة ٦٥هـ/ ٦٨٥م. [٢١٩] وخلال هذه المعركة استبسل التوابون وضحوا بأنفسهم. وبرز دور القُصَّاص في شحذ عزيمة التوابين وتحريضهم على القتال، خصوصا وأنهم أقل عددا مقارنة بالجيش الأموي. [٢٢٠]

ويصف ابن الأثير دور القُصَّاص المميز في رفع معنويات جيش التوابين، حيث يروي أنه عندما: «أمسوا تحاجزوا وقد كثرت الجراح في الفريقين وطاف القُصَّاص على أصحاب سليمان يحرضونهم.» [٢٢١]

---

(٢١٥) انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٤: ٢٩٢؛ ٦: ٢٥؛ البخاري، *التاريخ*، ٢: ٣٥١؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ١٢٢-١٢٣.

(٢١٦) المسعودي، *التنبيه والأشراف* (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١م)، ٢٨٥.

(٢١٧) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٥٥٢-٥٥٤؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٤٨.

(٢١٨) عين الوردة: هي مدينة كبيرة تشتهر بعيون الماء الصافية في منطقة الجزيرة الفراتية؛ ياقوت، معجم، ٣: ١٤؛ ٤: ١٨٠.

(٢١٩) البلاذري، *أنساب*، ٥: ٢١٠؛ المسعودي، *التنبيه*، ٢٨٥؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ١٨٠-١٨٦.

(٢٢٠) البلاذري، *أنساب*، ٥: ٢١٠؛ الطبري، *تاريخ*، ٥: ٥٨٤، ٥٩٨.

(٢٢١) ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ١٨٢.

واشتهر في جيش التوابين ثلاثة من القُصَّاص وهم : رفاعة بن شداد البجلي ، [٢٢٢] وصحير بن حذيفة المري ، [٢٢٣] وأبو الجويرية العبدي ، [٢٢٤] الذي جُرِحَ في اليوم الثاني من المعركة . [٢٢٥] وساهم رفاعة بن شداد وصحير بن حذيفة في رفع الروح المعنوية للتوابين . فكان رفاعة بن شداد يُحضض ميمنة الجيش ويقص عليهم القصص . [٢٢٦]

أما صحير بن حذيفة فكان يدور في لياليه كلها على الجنود يحمسهم ويحثهم على القتال قائلا لهم : « أبشروا عباد الله بكرامة الله ورضوانه ، فحق والله لمن ليس بينه وبين لقاء الأحبة ودخول الجنة والراحة من إبرام الدنيا وأذاها إلا فراق هذه النفس الأمّارة بالسوء أن يكون لفراقها سخيا وبلقاء ربه مسرورا . » [٢٢٧]

ويُعبر قصص صحير هذا عن أفكار التوابين ومبادئهم التي التزموا بها وضحوا بحياتهم من أجلها . فقد كانوا يجودون بأنفسهم إلى حد قتلها والاستراحة من الهم الذي يحملون عبئه في نفوسهم . كل ذلك في سبيل الأخذ بثأر الحسين بن علي بالرغم من قلة عددهم . أضف إلى ذلك أن التوابين قد حمّلوا أنفسهم ما آل إليه مصير الحسين بن علي المأسوي واعتبروا تضحيتهم بأنفسهم مجرد فداء واستشهاد لمفارقة تلك الأنفس المتخاذلة عن نصرة الحسين بن علي .

والملاحظ ، من سياق القصص السابق ، أن محوره يدور حول فكرة التضحية بالنفس المتهاونة والمتخاذلة وتأنيب الضمير على فعلتها . ويؤيد ذلك تضمين هذا القصص للآيات القرآنية الدالة على ذلك . فعندما يقول صحير بن حذيفة : « هذه النفس الأمارة بالسوء ، » فهو بلا شك يضمن قصصه قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿٥٣﴾ ﴾ . [٢٢٨]

---

(٢٢٢) انظر أخباره وترجمته عند : ابن حجر ، *تهذيب* ، ٢ : ١٦٦ ؛ ابن الأثير ، *الكامل* ، ٤ : ١٨٤-١٨٦ .

(٢٢٣) ليس له ترجمة في المصادر المتاحة .

(٢٢٤) ليس له ترجمة في المصادر المتاحة .

(٢٢٥) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٥٩١ .

(٢٢٦) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٥٩٨ .

(٢٢٧) الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٥١٨-٥١٩ .

(٢٢٨) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

ولم يكن تضمين هذه الآية في قصص صحير بن حذيفة دون مغزى ديني، فالآية وردت في سياق قصة النبي يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز حينما راودته عن نفسها، وهي تؤكد أن نفوس العباد تأمرهم بالهوى وإن كان هواها في غير رضا الله سبحانه وتعالى.[٢٢٩] ومن هنا، كانت تضحية التوابين وسعيهم وراء الشهادة هما الوسيلتان لفراق أنفسهم وهواها ولقاء الله سبحانه وتعالى.

والخلاصة، فقد ضحى التوابون الشيعة بأنفسهم من أجل الحسين بن علي، وسعوا وراء الشهادة تأنيبا لأنفسهم المتخاذلة. وخلال سعيهم هذا، أدى القُصَّاص دورهم في هذه الحركة بتدعيم وتعزيز فكرة التضحية وتأنيب الذات. غير أن كثرة أعداد الجيش الأموي أدت في النهاية إلى هزيمة التوابين في عين الوردة فقتل سليمان بن صُرد وزعماء حركة التوابين ماعدا رفاعة بن شداد الذي تراجع بالبقية الباقية من التوابين إلى الكوفة.[٢٣٠]

ولا تمدنا المصادر المتاحة بمعلومات كافية عن قُصَّاص حركة الشيعة في الفترة التاريخية التي تلت حركة التوابين، ولكن هناك إشارات تدل على أنهم كانوا يوجدون بكثرة في العراق خلال حركة المختار بن أبي عبيدة الثقفي، حيث كان لهم مسجد خاص بالكوفة يقصون فيه.[٢٣١] ويبدو أنهم استمروا في تدعيم حزبهم وإبراز مطالبهم وتأكيد فضل آل البيت والانتقاص من أعدائهم الأمويين.

وفي أواخر العصر الأموي نشطت الدعوة العباسية وانتشر الدعاة العباسيون، حتى أن مجالس الوعظ وحلقات الذكر كانت تعقد لهم في مواسم الحج. فقد كان علي بن عبدالله بن العباس (ت ١٠٨هـ/ ٧٢٦م)،[٢٣٢] وهو عابد وقارئ للقرآن، إذا قدم لمكة المكرمة حاجا أو معتمرا، عطلت قريش مجالسها في المسجد الحرام، وهجرت مواضع حلقها، ولزمت مجلس علي بن عبدالله بن العباس.[٢٣٣] ويروي الأصبهاني أنه: «كان

(٢٢٩) انظر: الطبري، جامع، ١٣: ١-٣؛ الزمخشري، *الكشاف*، ٢: ٤٧٧-٤٨١.

(٢٣٠) الطبري، *تاريخ*، ٥: ٦٠٦-٦٠٧.

(٢٣١) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٤٨.

(٢٣٢) انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٥: ٣١٢-٣١٤؛ الأصبهاني، *حلية*، ٣: ٣١٢-٣١٤.

(٢٣٣) الأصبهاني، *حلية*، ٣: ٢٠٧؛ ابن الجوزي، *صفة الصفوة*، تحقيق محمد فاخوري ومحمد قلعه جي، ط٣ (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٥م)، ٢: ١٠٧.

لايُرى لقرشي في المسجد الحرام مجلس ذكر يُجتمع فيه حتى يخرج علي بن عبدالله من الحرم . »[٢٣٤]

وبالإضافة إلى دعاة الدعوة العباسية من البيت العباسي نفسه، كان قضاة الدعوة العباسية -أيضا- يتولون القصص عند ظهورها. فعندما كان أبو مسلم الخراساني يقوم بأمر الدعوة العباسية سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٧م، كان قاضيه القاسم بن مجاشع التميمي[٢٣٥] يتولى القصص، حيث كان يصلي بأبي مسلم الخراساني، ثم يقص القصص بعد صلاة العصر فيذكر فضل ومحاسن بني هاشم وسوء ومعايب بني أمية.[٢٣٦]

وخلاصة القول، فإن قُصّاص الشيعة ودعاتهم كانوا يعبرون في قصصهم عن موالاتهم لآل البيت وعدائهم لبني أمية. وكان قصصهم في بدايته يعبر عن الثأر لمقتل الحسين بن علي والتضحية بالنفس في سبيل ذلك. ثم أصبح في أواخر العصر الأموي ينصب على ذم الأمويين وإبراز عيوبهم ومدح بني هاشم وإظهار محاسنهم. ولاشك بأن هذه الحرب الدعائية كان لها دور في إبراز أفكار الشيعة والتفاف المؤيدين حولها.

قُصّاص حركة ابن الزبير

تميزت حركة ابن الزبير بقلة القُصّاص المعبرين سياسيا عن تطلعاتها وأحقيتها بالسلطة. وتنسب هذه الحركة إلى عبدالله بن الزبير بن العوام، الذي قبل البيعة لمعاوية بن أبي سفيان، ولكن بعد وفاته سنة ٦٠هـ/ ٦٨٠م، رفض عبدالله بن الزبير إعطاء البيعة لابنه يزيد بن معاوية واستقل بالحجاز.[٢٣٧] ثم أعلن عبدالله بن الزبير نفسه خليفة، وبُويع له بالخلافة بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م.[٢٣٨] واستطاع خلال فترة

---

(٢٣٤) الأصبهاني، *حلية*، ٣: ٢٠٧ .

(٢٣٥) هو قاض وأحد نقباء الدعوة العباسية؛ انظر: ابن حزم، *أنساب*، ٢١٤؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٣٦٩؛ ابن كثير، *البداية*، ١٠: ٣٣ .

(٢٣٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٣٦٩؛ ابن كثير، *البداية*، ١٠: ٣٣ .

(٢٣٧) العصفري، *تاريخ*، ١٢٨؛ البلاذري، *أنساب*، ٥: ١٨٨-٢٠٤؛ الأصبهاني، *حلية*، ١: ٢٥٧-٢٥٨ .

(٢٣٨) البلاذري، *أنساب*، ٥: ١٨٨-٢٠٤ .

الاضطراب السياسي التي تلت وفاة يزيد بن معاوية من أن يستولي على اليمن ومصر والعراق وخراسان وأكثر إقليم الشام .[٢٣٩]

ولا تشير المصادر المتاحة إلى الكثير من قُصَّاص هذه الحركة، بل تكاد تقتصر على قاص واحد وهو عُبيد بن عُمير الليثي (ت٦٤هـ/ ٦٨٣م)، [٢٤٠] بالرغم من وجود العديد من القُصَّاص في الحجاز في هذه الفترة التاريخية .[٢٤١]

ويعتبر عُبيد بن عُمير أشهر قاص بمكة حتى أن أهالي مكة كانوا يتباهون به . فيروي ابن سعد « أن أهل مكة كانوا يفاخرون بقاصهم عبيد بن عمير . »[٢٤٢] وكان عُبيد بن عُمير يَقصّ في المسجد الحرام بعد صلاة الصبح، فيذكر الله سبحانه وتعالى ويدعو ويؤمن الناس .[٢٤٣] وكان قصصه من القصص البليغ والمليء بالمواعظ والتذكير، والذي كان له أثر كبير على من جلس إليه مستمعا له .[٢٤٤]

وعندما تؤخذ في الحسبان أوضاع الحجاز السياسية عامة، ومكة خاصة، المعارضة للأسرة السفيانية وخصوصا خلافة يزيد بن معاوية،[٢٤٥] يمكن تفسير موقف القاص عُبيد

---

(٢٣٩) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢ : ٢٥٥ ؛ الذهبي، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)*، ٣١٠-٣١٥ .

(٢٤٠) كان عُبيد بن عُمير الليثي قاص أهل مكة منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما اشتهر بأنه واعظ ومفسر للقرآن الكريم . انظر ترجمته عند : ابن سعد، *الطبقات*، ٥ : ٤٦٣-٤٦٤ ؛ ابن الأثير، *أسد*، ٣ : ٤٤١ .

(٢٤١) انظر : ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٥٣-٦٣ . حيث يورد أسماء قُصَّاص مكة والمدينة في العصر الأموي . ويروي ابن عساكر أن الخليفة المهدي العباسي عندما قدم للمدينة زائرا سلم عليه القراء والقُصَّاص والفقهاء والشعراء ؛ ابن عساكر، *تهذيب*، ٤ : ٤١١ . مما يدل على أن القُصَّاص كانوا يمثلون طبقة اجتماعية دينية مميزة في المدينة .

(٢٤٢) ابن سعد، *الطبقات*، ٥ : ٤٤٥ ؛ انظر أيضا : ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٥٣ .

(٢٤٣) الفاكهي، *أخبار*، ٢ : ٣٣٨ .

(٢٤٤) يروي ابن سعد أن عبدالله بن عمر بن الخطاب (ت ٧٤هـ/ ٦٩٣م) كان يجلس في حلقة عُبيد بن عُمير متأثرا بما يقوله حتى أن عينيه كانتا تهراقان بالدموع . انظر : ابن سعد، *الطبقات*، ٤ : ١٦٩ ؛ انظر أيضا : الفاكهي، *أخبار*، ٢ : ٣٣٨ ؛ الجاحظ، *البيان*، ١ : ٣٦٧ .

(٢٤٥) تشير المصادر إلى رفض بعض أعيان الحجاز ومنهم عبدالله بن الزبير إعطاء البيعة ليزيد بن =

ابن عُمير الموالي لأهل مكة والمعادي للأمويين . ومن هنا ، كان أهل مكة يجدون في قصص عُبيد بن عُمير تمثيلا واضحا لمتطلباتهم وتطلعاتهم وتعبيرا في الوقت نفسه عن حركة عبدالله ابن الزبير .

والملاحظ أن قصص عُبيد بن عُمير كان يحتوي على الذكر والوعظ الذي ينال من الآخرين ويحط منهم . فالمصادر تروي أن عائشة بنت أبي بكر الصديق (ت ٥٨هـ/ ٦٧٨م) رضي الله عنها ، قد طلبت من عُبيد بن عُمير أن يخفف في ذكره إذا قص لأن الذكر ثقيل سماعه على الآذان . يروي ابن سعد أن عائشة قالت لعُبيد بن عُمير : «خفف فإن الذكر ثقيل . »[٢٤٦] وفي رواية أخرى قالت له : « خفف ، فإن الذكر يقتل . »[٢٤٧] وإذا كان من معاني الذكر : الدعاء واغتياب الناس وتبيين عيوبهم ،[٢٤٨] فيمكن الاستنتاج على هذا الأساس بأن قصص عُبيد بن عُمير من القصص السياسي الذي يبدو أنه يحط من الأمويين ويشهر بهم .

وتتضح مناصرة القاص عُبيد بن عُمير لحركة عبدالله بن الزبير ، خلال الحصار الأول لمكة في عهد الخليفة يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م .[٢٤٩] فقد كان عُبيد بن عُمير يقصُ على جند الشام المحاصر لمكة . ويشير إلى ذلك اليعقوبي حيث يذكر بأن : « عبدالله [عُبيد] ابن عمير الليثي قاضي ابن الزبير ، [كان] إذا تواقف الفريقان قام على الكعبة ، فنادى بأعلى صوته : يا أهل الشام هذا حرم الله الذي كان مأمنا في الجاهلية يأمن فيه الطير والصيد ، فاتقوا الله ، يا أهل الشام ! فيصيح فيه الشاميون : الطاعة الطاعة ! »[٢٥٠]

ويدل هذا النص على أن عُبيد بن عُمير كان يتولى بالإضافة إلى القصص القضاء

= معاوية سنة ٥٦هـ/ ٦٧٦م ، كما خلع أهل مكة والمدينة بيعة يزيد بن معاوية سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م ؛ انظر : الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٣٠١-٣٠٤ ، ٤٨٢ ، ٤٩٦ ؛ اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ٢٤١ ، ٢٤٧ .

(٢٤٦) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٥ : ٤٦٣-٤٦٤ . وانظر أيضا : الذهبي ، *تاريخ (٦١-٨٠هـ)* ، ٤٨٠-٤٨١ ؛ جودة ، *القصص* ، ١٠٥ .

(٢٤٧) السيوطي ، *القُصّاص* ، ٢٤٤ .

(٢٤٨) ابن منظور ، *لسان* ، ٤ : ٣١٠-٣١١ . وانظر أيضا : جودة ، *القصص* ، ١٠٥ .

(٢٤٩) انظر : البلاذري ، *أنساب* ، ٤ : ٢ : ٤٦-٦١ ؛ الطبري ؛ تاريخ ، ٥ : ٤٩٦-٤٩٩ .

(٢٥٠) اليعقوبي ، *تاريخ* ، ٢ : ٢٥١-٢٥٢ .

لعبدالله بن الزبير . وأنه كان يحاول بقصصه أن يقنع الشاميين بحرمة البيت وتعظيمه . ومن جهة أخرى ، كان أهل الشام يطالبون بالطاعة والانقياد للخليفة . ويورد البلاذري رواية تحمل نفس المضمون عن دور عُبيد بن عُمير المساند لعبدالله بن الزبير . حيث يروي بأنه كان يقص على أهل الشام أيام السلم والمهادنة بين جيش الأمويين والزبيريين خلال حصار مكة .(٢٥١)

غير أن البلاذري في روايته السابقة لايشير إلى فحوى ذلك القصص ، الذي كان يقصه عُبيد بن عُمير ، ولكن يُفهم من رد أهل الشام وممثليهم بأن عُبيد بن عُمير كان في قصصه يعظم حُرمة البيت الحرام ويحط من مكانة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية ويذكر عيوبه ومثالبه . حتى أن جند الشام كانوا يعاتبون عُبيد بن عُمير قائلين له : « أيها الرجل الصالح ارجع إلى ما كنت فيه ولا تنتقص خليفة الله في أرضه فإنه أعظم حُرمة من البيت . »(٢٥٢)

وبإمعان النظر في رد جند الشام على عُبيد بن عُمير ، يستنتج بأنهم كانوا يرون أن عُبيد بن عُمير واعظ ورع ، ولكنه أقحم نفسه في الدفاع عن عبدالله بن الزبير ، وشارك في الأحداث السياسية بخلعه لطاعة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية ، الذي يرون أنه « خليفة الله . »(٢٥٣)

والواقع ، أن معاناة أهالي مكة من الحصار الأول سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م ، لم تحل دون بقاء القاص عُبيد بن عُمير موالـيا لعبدالله بن الزبيـــر ومعتبـــرا الأمويين أعـداء لأهل مكة . ويروي الفاكهي أن جابر بن عبدالله الأنصاري (ت٧٤هـ/ ٦٩٣م) قال لعُبيد بن عُمير : « كيف أنت ياليثي ؟ قال : بخير على ظهور عدونا علينـا . »(٢٥٤)

---

(٢٥١) البلاذري ، *أنساب* ، ٤ : ٢ : ٥٢ .

(٢٥٢) البلاذري ، *أنساب* ، ٤ : ٢ : ٥٢ .

(٢٥٣) خليفة الله لقب كان يطلق على أغلب الخلفاء الأمويين ابتداء من معاوية بن أبي سفيان ؛ انظر : الطبري ، *تاريخ* ، ٥ : ٢٢٣ . وانظر الدراسة التالية :

Patricia Crone and Martin Hinds, *God's Caliph, Religious Authority in the First Centuries of Islam*, (Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1986), 24-80.

(٢٥٤) الفاكهي ، *أخبار* ، ٢ : ٣٦٧.

وبعد، فقد كان للقاص عُبيد بن عُمير دور سياسي في تدعيم حركة عبدالله بن الزبير والانتقاص من الأمويين والخلافة الأموية. أما عن حالة الحركة نفسها فقد استمر عبدالله بن الزبير مسيطرا على الحجاز وأغلب الأقاليم الإسلامية، ولكنه فقد سيطرته تدريجيا عليها إلى أن تم القضاء على حركته في الحجاز على يد قائد بني أمية الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م.[٢٥٥]

قُصَّاص حركة ابن الأشعث

شارك الكثير من القُصَّاص في هذه الحركة وأيدوها قولا وفعلا. وهي حركة تُنسب إلى مؤسسها عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث.[٢٥٦] وهو قائد عسكري أرسله الحجاج ابن يوسف - والي العراق - لإخضاع بلاد سجستان التابعة للزعيم التركي رتبيل، سنة ٨٠ هـ/ ٦٩٩م.[٢٥٧] ولكن عبدالرحمن بن الأشعث تمرد على سياسة الحجاج بن يوسف الهادفة إلى الاستمرار في التوغل في أراضي رتبيل وفتح الكثير من تلك البلاد.[٢٥٨] كما أثار غضبه تهديد الحجاج بن يوسف له بتعيين أخيه إسحاق بن محمد بن الأشعث[٢٥٩] على إمارة الجيش بدلا عنه إن لم يستمر في التقدم في فتح بلاد رتبيل.[٢٦٠]

وترتب على ذلك أن جمع عبدالرحمن بن الأشعث رجاله وخطب فيهم مبينا لهم سوء رأي الحجاج بن يوسف وسياسته وأنه يريد فناءهم.[٢٦١] ثم قام جُند عبدالرحمن بن

---

(٢٥٥) العصفري، *تاريخ*، ١٤٨؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ١٨٧.

(٢٥٦) انظر ترجمته عند: ابن قتيبة، *المعارف*، ٣٣٣-٣٣٤، ٣٥٧؛ الذهبي، *تاريخ (٨١-١٠٠ هـ)*، ١٢٩-١٣١.

(٢٥٧) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٢٦-٣٢٩؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٤٥٥-٤٥٦.

(٢٥٨) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٣٥-٣٣٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٤٦١.

(٢٥٩) لاتوجد لإسحاق بن محمد بن الأشعث الكندي ترجمة في المصادر المتاحة، ولكن يرد اسمه ضمن حوادث حركة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث؛ انظر: الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٣٥.

(٢٦٠) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٣٥-٣٣٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٤٦١.

(٢٦١) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٣٥؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٤٦١-٤٦٢.

الأشعث وكبار قادته بمبايعته على خلع الحجاج بن يوسف والخليفة عبد الملك بن مروان وتعيينه أميرا عليهم لمحاربة الحجاج بن يوسف سنة ٨١هـ/ ٧٠٠م.[٢٦٢] وقد علا شأن حركة عبدالرحمن بن الأشعث وانضم إليه الكثير من المؤيدين، حتى أنه جمع حوله عشرات الآلاف من المقاتلين.[٢٦٣] وحصلت بينه وبين الحجاج بن يوسف بعض المعارك الرئيسية وكثير من المناوشات العسكرية.[٢٦٤] وخلال تلك الوقائع والمناوشات بين محمد ابن الأشعث والحجاج بن يوسف، نهض القُصَّاص بدورهم في مناصرة حركة محمد بن الأشعث وتأييده. فشاركوا بالقتال والتحريض ضد الحجاج بن يوسف وقواته.

والواقع، أن عبدالرحمن بن الأشعث كان واعيا ومدركا لأهمية القُصَّاص في حركته وقدرتهم على الإقناع وحث الجند على القتال، وفي نفس الوقت، ذكر معايب أعدائهم والتقليل من شأنهم، ولذلك احتفى بهم وضمهم إليه وأكرمهم. فحين تأهب عبدالرحمن ابن الأشعث للمسير إلى العراق دعا ذرّ بن عبدالله الهمداني[٢٦٥] فكساه ووصله وأعطاه، وأمره أن يؤلب الناس ضد الحجاج بن يوسف، فكان ذرّ بن عبدالله يقص كل يوم عائبا الحجاج بن يوسف وذاكرا مساوءه.[٢٦٦] وقد اجتهد ذر بن عبدالله في تحريضه الناس على الحجاج بن يوسف وجنده وبذل وسعه وطاقته. وساعده على ذلك أنه كان قاصا بليغا وخطيبا مفوها في الوقت نفسه.[٢٦٧]

ويُبرز ابن سعد دور ذرّ بن عبدالله كقاص متمكن ومؤثر، حيث يروي أن ذرّ بن عبدالله كانَ من أبلغ الناس في القصص، وكان يقول في معركة دير الجماجم[٢٦٨] سنة

---

(٢٦٢) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٣٦، ٣٣٨؛ ابن الاثير، *الكامل*، ٤: ٤٦٢-٤٦٤.

(٢٦٣) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٤٧.

(٢٦٤) العصفري، *تاريخ*، ٢٨٢.

(٢٦٥) انظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٦: ٢٩٣؛ الذهبي، *تاريخ (٨١-١٠٠هـ)*، ٥.

(٢٦٦) العصفري، *تاريخ*، ٢٨٠؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٣٦.

(٢٦٧) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٣٦.

(٢٦٨) دير الجماجم: نسبة إلى موقع بالقرب من الكوفة، وفيه حصلت الموقعة المشهورة بين الحجاج بن يوسف وعبدالرحمن بن الأشعث، والتي انهزم فيها عبدالرحمن بن الأشعث؛ انظر: ياقوت، معجم، ٢: ٥٠٣-٥٠٤.

٨٢هـ/ ٧٠٢م : « هل هي إلا بَرْدُ حديدة بيد كافر مفتون . »[٢٦٩] إن ذرّ بن عبدالله هنا يقلل من قيمة وقوة عدة وعتاد الحجاج بن يوسف من سيوف وأسلحة كونها قطع من حديد لا نفع فيها .[٢٧٠] كما أنها - كذلك - بيد الحجاج بن يوسف وأفراد جيشه الذين ينعتهم ذرّ ابن عبدالله بأنهم كفرة مفتونون بطلب الدنيا والانشغال بها .[٢٧١] والملاحظ ، أن ذرّ بن عبدالله بوصفه الحجاج بن يوسف وقواته بالكفر والفتون ينفي عنهم التزامهم الديني . ويريد أن يقوي الروح المعنوية في أصحابه ويشجعهم على قتال قوات الحجاج بن يوسف الخارجين عن الدين في نظره .

كما ضم عبدالرحمن بن الأشعث إليه القاص مسلم بن يسار البصري .[٢٧٢] وذلك بإيعاز من مؤيديه وأنصاره الذين كانوا مدركين لأهمية القُصَّاص ودورهم في تدعيم المقاتلين وبث الروح المعنوية فيهم . فقد قالوا لعبدالرحمن بن الأشعث : « إن سرك أن يُقتلوا حولك كما قُتلوا حول جمل عائشة فأخرج مسلم بن يسار معك . »[٢٧٣] ولا غرو أن يحتل مسلم ابن يسار هذه المكانة وينفرد بها ، فقد كان قاصا ثقة وعابدا ورعا وله حلقة يُذكر فيها في مسجد البصرة .[٢٧٤]

وبالإضافة إلى ذرّ بن عبدالله ومسلم بن يسار ، كان سعيد بن جبير[٢٧٥] من القُصَّاص

---

(٢٦٩) ابن سعد ، *الطبقات* ، ٦ : ٢٩٣ .

(٢٧٠) ابن منظور ، *لسان* ، ٣ : ٨٢-٨٨ .

(٢٧١) ترتبط الفتنة بالكفر في القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الممتحنة ، الآية : ٥] . انظر أيضا : سورة النساء ، الآية ١٠١ ؛ سورة البقرة ، الآية ١٠٢ ؛ سورة المدثر ، الآية ٣١ ؛ وانظر أيضا : ابن منظور ، *لسان* ، ١٣ : ٣١٧-٣٢٠ .

(٢٧٢) انظر ترجمته عند : ابن سعد ، *الطبقات* ، ٧ : ١٨٦-١٨٨ ؛ الفسوي ، *المعرفة* ، ٢ : ٨٥-٨٨ ؛ الذهبي ، *تاريخ (٨١-١٠٠هـ)* ، ٤٧٥-٤٧٨ .

(٢٧٣) الفسوي ، *المعرفة* ، ٢ : ٨٦ ؛ الذهبي ، *تاريخ (٨١-١٠٠هـ)* ، ٤٧٧ .

(٢٧٤) الفسوي ، *المعرفة* ، ٢ : ٨٦ ؛ ابن الجوزي ، *القُصَّاص* ، ١٧ .

(٢٧٥) انظر ترجمته عند : ابن سعد ، *الطبقات* ، ٦ : ٢٥٦-٢٥٧ ؛ ابن قتيبة ، *المعارف* ، ٤٤٥-٤٤٦ ؛ البخاري ، *التاريخ* ، ٣ : ٤٦١ .

الذين خرجوا مع عبدالرحمن بن الأشعث، [٢٧٦] ويعتبر من أشهر القُصَّاص والمذكرين. [٢٧٧] وكان يقص في الكوفة على من يحضر الصلاة مرتين، مرة بعد صلاة الفجر ومرة بعد صلاة العصر. [٢٧٨]

وأثناء معركة دير الجماجم كان سعيد بن جبير يؤلب جيش عبدالرحمن بن الأشعث ضد الحجاج بن يوسف وقواته، حيث كان يندد باعتداء عمال بني أمية على الناس وخروجهم عن الإسلام قائلا: «قاتلوهم على جورهم في الحكم وخروجهم من الدين وتجبرهم على عباد الله وإماتتهم الصلاة واستذلالهم المسلمين.» [٢٧٩]

ولا يخلو هذا القصص من مغزى وأهمية دينية؛ فسعيد بن جبير بقصصه هذا يبرر محاربة وقتال أهل الشام؛ فهم في نظره لايعدلون في أحكام الدين ولا يخضعون له. وهم - أي الأمويون - طغاة متجبرون لايقيمون فروض الإسلام ويستعبدون المسلمين. ولا شك أن قصصا مثل هذا، يُضفي الشرعية الدينية على حركة عبدالرحمن بن الأشعث والمشاركين فيها. وهو يمس بحال صميم ما تهدف إليه من إظهار الخصم بصورة لا دينية.

ولا تكتفي المصادر بما سبق من القُصَّاص، المشاركين في حركة عبدالرحمن بن الأشعث، بل تورد الكثير، ومن هؤلاء عمران بن عصام البصري. [٢٨٠] وكان من علماء البصرة، ويوصف بأنه عابد ومقرئ وقاص بالبصرة. [٢٨١] وعبدالله بن غالب الحُدّاني، [٢٨٢] وكان عابد أهل البصرة وقاصهم في مسجد البصرة. [٢٨٣] وماهان

---

(٢٧٦) ابن سعد، *الطبقات*، ٦: ٢٦٣؛ العصفري، *تاريخ*، ٢٨٦-٢٨٧؛ الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٥٠-٤٨٧.

(٢٧٧) ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٦٦.

(٢٧٨) ابن سعد، *الطبقات*، ٦: ٢٥٩؛ ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٦٦.

(٢٧٩) ابن سعد، *الطبقات*، ٦: ٢٦٥؛ انظر أيضا: الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٥٨.

(٢٨٠) انظر ترجمته عند: البخاري، *التاريخ*، ٦: ٤١٧-٤١٨؛ الذهبي، *تاريخ (٨١-١٠٠هـ)*، ١٥٨-١٥٩؛ ابن حجر، *تهذيب*، ٤: ٤٠٢.

(٢٨١) الذهبي، *تاريخ (٨١-١٠٠هـ)*، ١٥٨-١٥٩.

(٢٨٢) انظر ترجمته عند: ابن سعد، *تاريخ*، ٧: ٢٢٥؛ البخاري، *التاريخ*، ٥: ١٦٦-١٦٧؛ ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ٢٢٩.

(٢٨٣) الذهبي، *تاريخ (٨١-١٠٠هـ)*، ١١٧-١١٨.

الأعور[٢٨٤] الذي عُرفَ بالقاص. [٢٨٥] ومالك بن دينار، [٢٨٦] الذي كان من أشهر قُصَّاص ومذكري البصرة. [٢٨٧]

والواقع، أن هذا الكم الهائل من القُصَّاص - المشاركين في حركة عبد الرحمن بن الأشعث - يدل على إدراكه لأهمية القُصَّاص وقصصهم. لقد عرف - كغيره من أصحاب الحركات السياسية - كيف يستغل هؤلاء القُصَّاص ليعبروا عن حركته ويدافعوا عنها. ليس فقط في إظهار أفكار حركته ومعتقداتها وطرحها السياسي والديني، بل بالوقوف موقف العداء السافر لكل ماتمثله الدولة الأموية كخلافة قائمة في تلك الفترة التاريخية.

يمكن القول، إذن، إن حركة عبدالرحمن بن الأشعث كانت حركة سياسية دينية، استطاعت بما توافر لها من دعم عسكري تمثله القوات الكثيرة المشاركة في هذه الحركة، ودعم ديني يمثله القُصَّاص والدعاة، أن تُنهك الدولة الأموية وتكلفها الكثير.

وعلى الرغم من ذلك، فلم تصمد هذه الحركة طويلا في مواجهة جيوش الأمويين بقيادة الحجاج بن يوسف، الذي كان يقود جيشا قويا ومتحمسا، وموالیا للدولة الأموية ومن يمثلها، فانتهت حركة عبدالرحمن بن الأشعث بالهزيمة سنة ٨٢هـ/ ٧٠٢م، ولقي زعيمها مصيره منتحرا سنة ٨٥هـ/ ٧٠٤م. [٢٨٨]

حركة الحارث بن سُرَيْج

تنسب هذه الحركة إلى الحارث بن سُرَيْج التميمي، [٢٨٩] الذي خرج على بني أمية في خلافة هشام بن عبدالملك بن مروان (١٠٥-١٢٧هـ/ ٧٢٤-٧٤٣م) واستطاع أن يهزم

---

(٢٨٤) انظر ترجمته عند: البخاري، *التاريخ*، ٢: ٦٧؛ الأصبهاني، *حلية*، ٤: ٣٦٤-٣٦٧.

(٢٨٥) انظر: الذهبي، *تاريخ* (٨١-١٠٠هـ)، ١٧.

(٢٨٦) العصفري، *تاريخ*، ٢٨٦؛ وانظر ترجمته عند: ابن سعد، *الطبقات*، ٧: ٢٤٣؛ الذهبي، *تاريخ* (١٢١-١٤٠هـ)، ٢١٤-٢١٧.

(٢٨٧) ابن الجوزي، *القُصَّاص*، ٦٩، ٧٤-٧٥.

(٢٨٨) الطبري، *تاريخ*، ٦: ٣٩٠-٣٩١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٤: ٤٨٠-٤٨٣، ٥٠١-٥٠٢.

(٢٨٩) انظر: العصفري، *تاريخ*، ٣٤٦-٣٤٧، ٣٨٣-٣٨٤.

عُماله في خراسان سنـــــة ١١٦هـ/ ٧٣٥م. [٢٩٠] ولاتشير المصادر المتاحة إلى قُصَّاص عديدين لهذه الحركة، بل تقتصر على قاص واحد وهو جهم بن صفوان [٢٩١] الذي كان كاتبا للحارث بن سريج. [٢٩٢]

وكان الحارث بن سريج يدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والبيعة للرضا. [٢٩٣] وقد لقيت دعوته لتخليص المضطهدين ومحاربة عمال بني أمية قبولا وترحيبا من الموالي والعرب. [٢٩٤] وقد أمر الحارث بن سريج كاتبه جهم بن صفوان أن يقرأ سيرته وما يدعو إليه على الناس، فكانت تُقرأ في الأسواق والمساجد. [٢٩٥] وكان لسيرته وقع كبير على من سمعها. فتأثر بها أعداد كثيرة وانضموا إلى الحارث بن سريج. [٢٩٦]

والواقع، أن الحارث بن سريج قد استفاد من بلاغة جهم بن صفوان وقدرته الخطابية في التعبير عن حركته ومطالبها، ولا غرو في ذلك فقد كان جهم بن صفوان ذا فكر وجدال بالرغم من أنه يوصف برأس الجهمية وأساس بدعتها. [٢٩٧]

وقد اضطلع جهم بن صفوان بما أسند إليه فكان تأثيره كبيرا على عسكر الحارث بن سريج وأنصاره، فالطبري يروي بأن الجهم بن صفوان كان يقص على عسكر الحارث بن

---

(٢٩٠) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٩٤-٩٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ١٨٣.

(٢٩١) هو أبو محرز الراسبي، وتنسب إليه الفرقة الجهمية، وقد قتله أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية حوالي سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٨م. انظر ترجمته عند: الذهبي، *تاريخ (١٢١-١٤٠هـ)*، ٦٥-٦٨. وحول الفرقة الجهمية واعتقاداتها، انظر: الأشعري، *مقالات*، ١: ٣٣٨؛ الشهرستاني، *الملل*، ٢: ٨٦-٨٨.

(٢٩٢) الذهبي، *تاريخ (١٢١-١٤٠هـ)*، ٦٦.

(٢٩٣) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٩٥؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ١٨٣.

(٢٩٤) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٩٦. وانظر أيضا: ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ١٨٤.

(٢٩٥) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٣٣٠، ٣٣٢؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٣٤٢-٣٤٣.

(٢٩٦) يروي الطبري أن الحارث بن سريج سار إلى خراسان في جمع يبلغ ٦٠ الفا؛ الطبري، *تاريخ*، ٧: ٩٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ١٨٤.

(٢٩٧) ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٣٤٢؛ الذهبي، *تاريخ (١٢١-١٤٠هـ)*، ٦٦.

سريج، وكان يقرأ سيرته على الناس حتى أنهم كانوا ينصرفون من عنده مكبرين .[٢٩٨]

وبالرغم من قوة هذه الحركة وكثرة أنصارها واستلهام الحارث بن سريح لسيرته ودعوته القُصَّاص لبثها بين الناس، إلا أنها انتهت كغيرها من الحركات السياسية، حيث قُتل الحارث بن سريج سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥م .[٢٩٩] أما جهم بن صفوان فقد أُسر ثم قُتل سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥م[٣٠٠] بعد أن لعب دورا في تدعيم هذه الحركة ليس فقط بالدعوة لها، بل بالقتال في سبيلها .

خاتمة

كان الهدف من هذه الدراسة هو محاولة الإجابة عن بعض الأسئلة التي أثيرت في بدايتها عن القُصَّاص والقصص ودورهما السياسي في العصر الأموي (٤١-١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٥٠م) . وقد بينت الدراسة أن القصص كان في بداية الإسلام وعظا وتذكيرا وتخويفا، ولكن الظروف السياسية التي حلت بالأمة الإسلامية، والتي بدأت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٣٥هـ/ ٦٥٦م، نتج عنها تحولات سياسية وفكرية واجتماعية عديدة، ومن ضمنها تحول مفهوم القصص من وعظ وتذكير إلى قصص سياسي يعبر عن واقع جديد ويهدف لخدمة أغراض سياسية متباينة ومختلفة الأهواء والميول .

وأظهرت أن القُصَّاص، الذين حَملوا لواء القصص، كانوا في الوقت نفسه حصيلة فترة زمنية من الانقسامات السياسية والفرقة الدينية . فكان قصصهم زاخرا بالأفكار والآراء المعبرة عن عقيدة القاص المرتبطة جذريا بمصير عصره وما يعج فيه من أحداث سياسية . وكذلك انتماءات لحركات سياسية متعارضة .

وأوضحت الدراسة أن أغلب خلفاء الدولة الأموية وقادتهم العسكريين، وكذلك زعماء بعض الحركات السياسية المعارضة، قد ساهموا في إبراز دور القُصَّاص على الساحة السياسية في العصر الأمـوي . وكانوا من الذكاء بحيث أدركوا أهمية القُصَّاص وما

---

(٢٩٨) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٣٣٠-٣٣١ .

(٢٩٩) الطبري، *تاريخ*، ٣: ٣٤٠-٣٤١؛ وانظر أيضا : ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٣٤٦ .

(٣٠٠) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٣٣٥؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٣٤٤ .

لقصصهم من تأثير وإقناع وتحفيز، فعرفوا كيف يستغلونهم ويوظفونهم لخدمة أغراضهم ومصالحهم السياسية.

وأكدت على مدى قوة دور القُصَّاص الأمويين المتكلمين باسم الدولة الأموية. وأنهم كانوا أكثر تسييسا وتنظيما من قُصَّاص الحركات السياسية المعارضة. وذلك لأنهم كانوا يمثلون وظيفة رسمية تتولى الدولة مصاريفها والإنفاق عليها. وأن وظيفة هؤلاء القُصَّاص كانت نتيجة حتمية لما واجهته الدولة الأموية من حركات سياسية معارضة حفلت بقُصَّاصها المعبرين عنها.

وأبانت الدراسة أن القُصَّاص الأمويين قد خدموا الدولة الأموية بقصصهم في السلم والحرب، فآزروا الأمويين وحاربوا معهم وبالغوا في تأييدهم وأطنبوا في مديحهم. وكانوا فئة مميزة تمثل الدولة الأموية وتؤلب الجماعة المنضوية تحت لواء هذه الدولة ضد أعدائها والخارجين عليها.

واهتمت بالعلاقة الوطيدة بين وظيفة القصص والقضاء. فبينت أن القاص كان قاضيا في الوقت نفسه. وكان دوره السياسي واضحا عند القُصَّاص الأمويين وبعض الحركات السياسية كحركة الشيعة وحركة ابن الزبير.

وأبرزت أهمية قُصَّاص الحركات السياسية المعارضة للدولة الأموية، ودورهم المميز والواضح في مساندة حركاتهم. واستفادة زعماء تلك الحركات من قصصهم أيما إفادة في إثارة الروح المعنوية لأنصارهم والتعبير عن حركاتهم وإظهار عدوهم بصورة مغايرة للإسلام.

وأوضحت الدراسة أن قُصَّاص الأمويين خاصة، وقُصَّاص الحركات السياسية المناوئة قد طرقوا في قصصهم مواضيع عديدة كانت جميعها تصب في قالب واحد وهو تأييد من يمثلهم وانتقاص أعدائهم. وأن قصص الأمويين وأغلب الحركات المعارضة قد تميز بوفرة المعاني وتعدد الأغراض وكثرة الاقتباسات الدينية من القرآن الكريم وأحيانا من الحديث الشريف.

ويستنتج من هذه الدراسة أن القُصَّاص باقتباسهم وتضمينهم في قصصهم آيات القرآن الكريم كانوا يخرجون تلك الآيات عن مضمونها وأسباب نزولها. كما كانوا يلمحون

إلى القرآن الكريم ويعيدون الصياغة للآيات القرآنية لتناسب قصصهم وما يعبر عنه . وقد ظهر ذلك جليا في قصص الأمويين والخوارج والشيعة .

كما يلاحظ أن قُصَّاص الأمويين والحركات السياسية المعارضة باستشهادهم بالقرآن الكريم وإخراج آياته من مضمونها وأسباب نزولها، كانوا يعبرون عن فهمهم الخاص لآيات القرآن الكريم . ولا غرابة في ذلك فالقرآن الكريم كان هو الجامع والمحرك لأولئك القُصَّاص .

ويستنتج أيضا أن القُصَّاص كانوا في تلك الفترة الزمنية وسيلة إعلامية - إن صح القول - تُعبر عن الدولة الأموية والحركات السياسية المعارضة . فقد كانوا يحفزون ويستفزون ويقنعون ويجادلون عن آراء من يمثلون وينادون بسياسته .

وقد كان من الطبيعي أن يستدعى هجوم قُصَّاص أي حركة في هذه الفترة التاريخية على الحركة الأخرى ومن يمثلها وينتمي إليها الرد العنيف من قُصَّاص الحركة الأخرى بنفس الأسلوب والطريقة، دفاعا عن معتقداتهم وطرحهم السياسي ومن ينتمي إليهم ويؤمن بصدقهم وأحقية مطالبهم .

ومن هنا، يمكن القول إن القُصَّاص قد لعبوا دورا كبيرا في تطوير الفكر السياسي والديني في العصر الأموي، ليس فقط من حيث احتواء قصصهم على آراء وأفكار معبرة عن حركاتهم، بل - أيضا - من حيث إثارتهم لكثير من وجهات النظر المعارضة والمناوئة للدولة الأموية .

وأخيرا، لعل هذه الدراسة قد أجابت عن بعض التساؤلات التي أثيرت في بدايتها حول القُصَّاص ودورهم السياسي في العصر الأموي . وهي - على أية حال - محاولة قصد بها تسليط الضوء على دور تلك الفئة المميزة إبَّان فترة مهمة من التاريخ الإسلامي . ولعلها تكون حافزا لدراسات أوسع وأشمل عن القُصَّاص ودورهم في العصر الأموي وغيره من العصور الإسلامية .

Preachers and Their Political Role during the Umayyad Period (A.H. 41-132 /661-750)

Ibrahim A. Al-Jomaih

Assistant Professor, Dept. of History, Faculty of Arts and Humanities
King Abdulaziz University , Jeddah, Saudi Arabia

Abstract: The role of the preachers was exhortation and recalling the past in the begining of Islam. However, some of them became political preachers who publicized the Umayyad dynasty and opposing political movements . As such, who were the preachers and what is preaching? How did preaching evolve and change to political preaching?. What was the role of Umayyad political preachers ? And how did the Umayyads, Zubayris, Shia, Khawarij, and other movements express their beliefs and political tendencies through their preaching?

What were the distinguishing features of the preachers and how were they appointed? What was their function? Did they serve the religious and political goals of the movements that they believed in?

Finally, why were the preachers of the Umayyads and some political movements greater in number and better organized than others?

This study is an attempt to answer the aforementioned questions by shedding light on the political role of the preachers during the Umayyad period.